

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة عبد الحميد ابن باديس
كلية العلوم الاجتماعية
قسم الفلسفة

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر تخصص فلسفة عامة و تعليمياتها

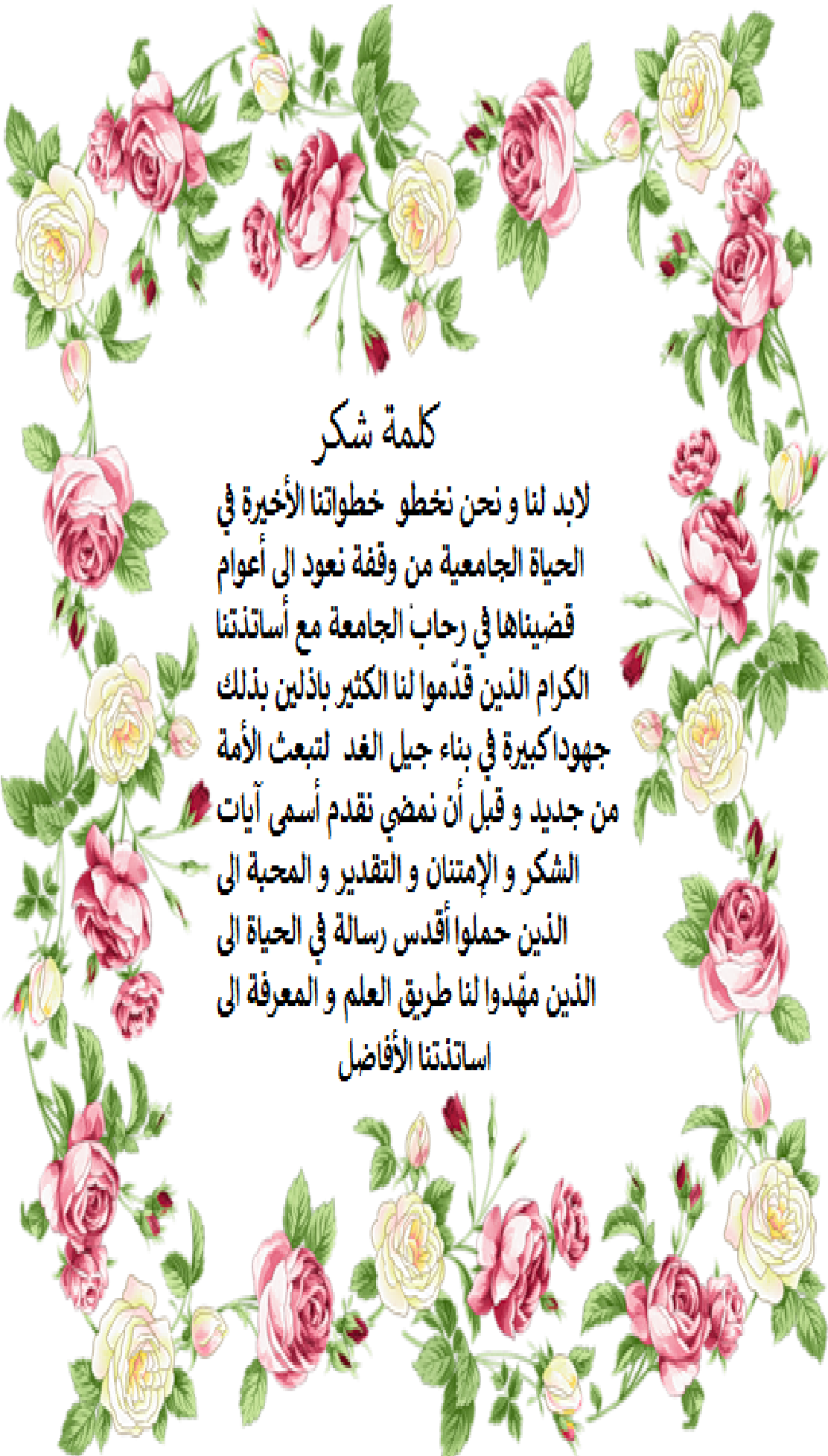
عنوان المذكرة :

إشكالية النهضة : محمد عبده نموذجا

اشراف الأستاذ :
عباس الشارف

اعداد الطاب :
نابي أيوب

السنة الجامعية : 2020/2019



كلمة شكر

لابد لنا ونحن نخطو خطواتنا الأخيرة في
الحياة الجامعية من وقفة نعود الى أعوام
قضيناها في رحاب الجامعة مع أساتذتنا
الكرام الذين قدّموا لنا الكثير باذلين بذلك
جهودا كبيرة في بناء جيل الغد لتبعث الأمة
من جديد وقبل أن نمضي نقدم أسمى آيات
الشكر والإمتنان والتقدير والمحبة الى
الذين حملوا أقدس رسالة في الحياة الى
الذين مهّدوا لنا طريق العلم والمعرفة الى
اساتذتنا الأفاضل

اهداء

الى الوالدين فلولاهما لما
وجدت في هذه الحياة و
منهما تعلمت الصمود
مهما كانت الصعوبات

الى أساتذتي الكرام فهمنهم استقيت
الحروف و تعلمت كيف أنطق الكلمات
و أصوغ العبارات

الى الزملاء و الزميلات الذين لم يدخروا
جهدا في مدي بالمعلومات و البيانات
أهدي اليكم هذه الرسالة داعيا المولى
سبحانه و تعالى أن تكفل بالنجال و القبول
من جانب أعضاء لجنة المناقشة المبجلين



مقدمة

لقد دخل العالم الإسلامي في أواخر الفترة العباسية ، في حالة تخلف و انحطاط بعد أن عاش فترة ذهبية عرف خلالها تألقاً و ازدهاراً في جميع الميادين ، و خاصة بعد أن عرف المسلمون حركة الترجمة التي اطلعوا من خلالها على علوم اليونان و الشرقيين القدماء ، فطوروا الهندسة و الرياضيات و الطب و الفلك و غير ذلك.

فكان هناك انتعاش عقلي لم يسبق له مثيل في الحضارة الإسلامية ، في مقابل كانت البلدان الأوروبية تعيش في حالة ظلام ، و كان الكثير من المفكرين الأوروبيين يدرسون عند أساتذة و علماء عرب و مسلمين و تتلمذوا على أيديهم. و اخذ الكثير منهم و ترجموا أبحاث علماء و فلاسفة الإسلام. لكن هذا الانتعاش العقلي الذي عرفته الحضارة العربية الإسلامية لم يدم ، فسرعان ما تم طمس هذا العقل و تغييبه في العالم الإسلامي و تم حرق كتب الفلاسفة المسلمين و تم اضطهادهم ، كما تم اغلاق مراكز الترجمة ، و كل هذا كان سببه و كان ورائه قوى التقليد الرجعية أي الفقهاء الذين جرّموا التفكير العقلي ، و أعطوا السلطة المطلقة للنص فقط ، و من يفكر خارج حدود النص و الشرع أو يُعَمِّل عقله فهو كافر و زنديق.

و ظل المسلمون على هذا الحال ، و ازداد تخلفهم و انحطاطهم يوماً بعد يوم و تضاعفت ازمتهم ، خاصة بعد احداث النهضة في الغرب و بعد الاختراعات و الاكتشافات التي توصل اليها الغرب ، و التي مكنته من هزيمة الدولة الإسلامية التي كانت تندرج تحت الخلافة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين ، فتم احتلال العالم الإسلامي و طمس هويته و ثقافته. كل هذه العوامل و الأوضاع جعلت مجموعة من المفكرين ينهضون حاملين راية الإصلاح و النهضة محاولين تغيير واقعهم و واقع شعبيهم المرّ ، مخاطرين بحياتهم و حياة عائلاتهم ، و كان لكل منهم وسيلته الخاصة في دعوته الى الإصلاح و النهضة و من بين هؤلاء المفكرين الأستاذ الامام محمد عبده و الذي هو موضوع دراستنا. و الذي يعتبر من أوائل الذين دعو الى اصلاح الدين الإسلامي هو و أستاذه جمال الدين الأفغاني ، و هذا ما يدفعنا الى طرح الإشكالية الآتية :

ما هي الآليات و الوسائل و الحلول التي قدّمها محمد عبده من أجل احداث النهضة و الإصلاح؟ و فيما تتمثل أهم معالم فكره الإصلاحي؟
و قد اعتمدنا في بحثنا هذا على أكثر من منهج :

- المنهج التاريخي نظراً لأنّ طبيعة الموضوع في بداية الدراسة تقتضي ذلك
- المنهج التحليلي لتحليل بعض أفكار محمد عبده و تبسيطها
- المنهج النقدي في نقد فكر محمد عبده

و قد وضعنا خطة مكوّنة من مقدمة و فصلين و في كل فصل ثلاثة مباحث ثم في الأخير خاتمة

فجاء عنوان الفصل الأول " مدخل الى النهضة" و فيه تحدثنا عن النهضة بشكل عام و النهضة العربية بشكل خاص ، مُبيّنين السياقات التاريخية للنهضة العربية و أهم العوامل التي

أدت الى قيامها كما تحدثنا في هذا الفصل عن الاتجاهات العامة للنهضة العربية ، موضحين في ذلك خصائص و فكر كل اتجاه ، ثم تناولنا أهم المفاهيم التي تداولها مفكروا عصر النهضة العربية و تعريف كل منها على حدى.

أما الفصل الثاني فتمت عنونته ب " مشروع محمد عبده في الإصلاح " ، و فيه تطرقنا الى حياة محمد عبده ، ميلاده و نشأته و تعليمه و رحلاته...، ثم تطرقنا الى معالم الفكر الإصلاحي عند محمد عبده مبيّنين في ذلك أهم أنواع الإصلاحات التي جاء بها محمد عبده ، و أخيرا تناولنا معالم الفكر الإصلاحي عند محمد عبده من منظور نقدي و أخذنا نماذج لبعض المفكرين الذين انتقدوا محمد عبده.

و قد تعددت أسباب اختيارنا لهذا الموضوع بين أسباب ذاتية و أخرى موضوعية :

الأسباب الذاتية :

- الميل الشخصي و حب مواضيع فكر النهضة العربية الحديثة و المعاصرة ، و حب الفلسفة الإسلامية.
- الرغبة في المطالعة و التعرف على فكر الامام محمد عبده.

الأسباب الموضوعية :

- طبيعة الأوضاع التي نعيشها اليوم في مجتمعاتنا تقتضي منا البحث و التقصي في مثل هكذا مواضيع ، و البحث عن الأسباب التي جعلتنا نتخلف و عن الحلول المناسبة.
- كثرة توفر المصادر و المراجع حول هذا الموضوع

أما أهداف هذه الدراسة يمكن أن نوجزها في النقاط التالية :

- التعريف بشخصية الأستاذ الإمام و الامام بفكره و السعي لحياء هذا الفكر
- التطرق لأهم أفكار محمد عبده في مجال الإصلاح قصد الاستفادة منها ، كما أننا بأشد الحاجة لمثل هكذا أفكار في وقتنا الحاضر.
- إعادة الاعتبار لمفكري عصر النهضة العربية الحديثة.

أما الصعوبات و العوائق التي واجهتنا في هذه الدراسة كانت كالتالي :

- قلة الخبرة بالنسبة للطالب المتخرج من جامعة مستغانم حيث أنه لا يوجد تخصص بعينه في الفكر العربي و الفلسفة الإسلامية.
- صعوبة التنسيق بين المصادر و المراجع نظرا لكثرتها و تداخل الأفكار و المعلومات و تشابهها.

الفصل الأول

مدخل إلى النهضة العربية

المبحث الأول : مفهوم و خصائص النهضة العربية

1-تعريف النهضة :

يشير مصطلح النهضة في تاريخ الفلسفة الى تلك الحركة الاجتماعية و المذاهب الفلسفية التي ظهرت في أوروبا في مستهل القرنين الرابع عشر و الخامس عشر ميلادي ، و يمكن الإشارة إليها باختصار ب (عيد ميلاد العقل الأوروبي في التفكير الفلسفي). فالنهضة تعني اليقظة و الفطنة يقظة هذا العقل الذي كان في سبات ، أو بالأحرى كان مقيداً و مخدراً من طرف الكنيسة التي كانت تمارس احتكارها و تفرض ايديولوجياتها و سياستها على كل الجوانب الحياتية ، و تمرده على هذا السياسة التي كانت تمارسها السلطة الكنسية .

و قد أدت هاته الحركة الى احياء التراث الكلاسيكي القديم أي التراث اليوناني و الروماني الذي كان سائداً قبل المسيحية. فاحياء التراث الفلسفي للعصر القديم بالإضافة الى سلسلة المكتشفات العلمية الهامة، قد مكّنت الفلسفة التقدمية من الانطلاق متحررة من اللاهوت و ان تؤدي الى اتجاهات مناهضة للمدرسية، و قد تبنت هذه الاتجاهات أولاً في الاخلاق و أدت الى احياء النظريات الاخلاقية للابيقورية* و الرواقية** التي وجهت ضربات للاخلاقيات المسيحية السائدة في ذلك العصر 1 ، بالإضافة الى اتجاهات أخرى في الفلسفة الطبيعية التي خالفت المناهج المدرسية في تفسير الطبيعة، و أيضاً الاتجاهات العلمية التي تمثلت في مناهج البحث الرياضي و التجريبي في الطبيعة التي عمّمت تعميماً فلسفياً في أعمال ليوناردو دافنشي و بصفة خاصة غاليليو و التفسير الحتمي للواقع باعتباره معارضا للتفسير الغائي الذي كان يقول به المدرسيون و صياغة قوانين علمية أصيلة للطبيعة متحررة من مذهب التشكيل الإنساني للطبيعة (صياغة كبلر في علم الفلك و غاليليو في الميكانيكا).² هذا بالإضافة الى عدة ثورات فلسفية علمية نسفت أفكار و عقائد الكنيسة فلم يعد منطق ارسطو و لا تفسيره للكون هو المسيطر و لم يعد الكتاب المقدس و تفسيره حكراً على رجال الدين فقط.

¹ م. روزنتال و ب. بودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، ص 552

² المرجع نفسه ص 552

*الابيقورية : مدرسة فلسفية أسسها ابيقور في أثينا عام 306 ق.م علم فيها تلامذته فن الحياة العاقلة و هو ان الغاية من هذا الفن تحقيق السعادة التي هي اللذة تتفق مع العقل ذلك ان لذة العقل تفوق لذة الجسم الاذ يستلزم إزالة الخرافات، أي إزالة الخوف من القدر أو الالهة او الموت و هذا من شأنه توفير السكينة. انظر مراد وهبة المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007 ص 16.

**الرواقية : مدرسة فلسفية يونانية أسسها زينون في رواق و كملها تابعان و هما أفلاينتوس و أقريسيبوس. الحكيم الرواقي هو الذي يعلم ام كل شئ يقع في الطبيعة انما يقع بالعقل الكلي او بالقدر، ويقبل مفاعيل القدر طوعاً. انظر مراد وهبة المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007 ص 329.

وعليه فمصطلح النهضة يخدم ما ذهب إليه الفكر البشري من تحولات و تغيرات يفرضها عليها التاريخ و الزمن فالتاريخ يثبت ان مصطلح النهضة كان يُستخدم لكل ما هو جديد يحول الفكر البشري. و اذا ما رجعنا الى تاريخ العرب نجد كذلك عنهم هذا اللفظ الذي يدل على غاية جدّ مهمة ، فمصطلح النهضة يبرز لنا مفهوم خاص لديهم و هو إن دلّ على شيء فانما يدل على ما قبل النهضة و هو مصطلح اليقظة ، الافاقة³ ، اليقظة من السبات ، و الفطنة و الانتباه الى ما آل اليه وضع العرب و المسلمين من تخلف و انحطاط على جميع الأصعدة و المستويات سواء فكرية او ثقافية او اجتماعية او سياسية أو اقتصادية . حيث نجد طه حسين يقول : " كان القرن الماضي عصر افاقة من نوم عميق ، نستطيع ان ننظر اليه الان من بعيد فنرى شيئاً عجيباً... نرى مصر تحاول ان تستيقظ شيئاً فشيئاً و الاحداث الثقال الضخام هي التي تحاول ايقاظها ، و نرى العالم الخارجي الغربي يقظاً منتبها يحاول ان يعرف عن مصر اكثر جدا مما كانت مصر تعرف نفسها"⁴، فطه حسين يشير الى مصطلح النهضة بالافاقة و الاستيقاظ.

أما النهضة بحسب ما ذهب إليه الجابري فتفيد معنيان: المعنى الأول وهو الولادة الجديدة أي ظهور كينونة جديدة تحل محل الكينونة القديمة ، أما المعنى الثاني فهو انتقال نفس الكينونة من حال القعود أو الجلوس إلى حال القيام.

إن مصطلح النهضة العربية راج ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. إذ نجد مصطلح نهض و بعض مشتقاتها ك (نهوض) و (نهضة) تتردد معانيها عند كثيرين من الرواد و خاصة الأوائل منهم أمثال جمال الدين الأفغاني* و محمد عبده. و الغالب أن هذه الألفاظ كانت تقترن بأضدادها كوسيلة لتحديد معناها ، النهوض في مقابل السقوط ، و النهضة في مقابل الانحطاط ، وذلك هو نفسه المعنى اللغوي لهذه المادة.

و مصطلح النهضة عند العرب لم يكن له نفس المعنى الذي نجده عند الغرب ، فالنهضة عند الغرب كانت تعني كما سبق الذكر العودة الى احياء الثقافة و الفنون الأوروبية اليونانية و الرومانية و العودة الى تلك القيم و الامجاد التي صنعتها تلك الثقافة

³ موسى بوبكر، إشكالية فكر النهضة العربية، مذكرة تخرج لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الفلسفة، جامعة الحاج لخضر- باتنة، سنة 2010-2011، ص 8
4 المرجع نفسه ص 8.

* جمال الدين الأفغاني : ولد سنة 1838م، و توفي سنة 1897م، أحد أعلام النهضة العربية في العصر الحديث، ومن المجددين للفكر الإسلامي، تقلد العديد من المناصب كمنصب الوزير الأول، كما تقلب بين أراضى المشرقين و المغربيين، فرحل الى باريس و لندن و روسيا و الفرس و الهند... الخ، من أهم مؤلفاته (جريدة العروة الوثقى)، (في الرد على الدهريين) ، (تنمة البيان في تاريخ الأفغان)، انظر: صلاح زكي أحمد أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مركز الحضارة العربية 1 القاهرة، 2001، ص 39.

(العودة الى الجذور من أجل الولادة الجديد او الانبعاث الجديد) . اما عند العرب فكانت النهضة تعني النهوض لمواجهة الاستعمار و التدخل الأوروبي و الأجنبي و التهديد الخارجي.

أما النهضة بمعنى ولادة جديدة في الفكر و الفن و الاقتصاد و هو المعنى الأوروبي للكلمة هو مفهوم قد افرز لاحقا لسيما لدى دعاة التجديد و العلمانية و الليبرالية⁵، الذين كانوا يرون أن النهضة العربية لا تتحقق الا باحداث القطيعة مع التراث العربي و الإسلامي و تبني قيم الحداثة الأوروبية.

اذن بشكل عام النهضة العربية هي حركة وُلدت نتيجة الصدمة التي ضربت العرب ، و نبهتهم الى تخلفهم جراء الاستعمار الأوروبي و الاطماع الأجنبية و خاصة بعد انهيار الدولة العثمانية ، فكان لا بد من احداث نهضة لمقاومة هذا الاستعمار و محاربة هذا التخلف و الإنحطاط الذي عصف بالعرب و المسلمين.

2- السياق التاريخي للنهضة العربية :

لقد تأثرت النهضة العربية الى حد كبير بالنهضة الأوروبية الحديثة ، فطالما انبهر دعاة النهضة العربية أمثال الشيخ محمد عبده و جمال الدين الافغاني بالحضارة الغربية ، و بمظاهر التحديث و الدولة المدنية ، و الأنظمة السياسية و الاقتصادية ، و التقدم العلمي و التنوير الذي حضى به العالم الغربي ، في مقابل كانوا هم يعيشون أوضاعاً مزدرية و تفهقر و انحطاط. فهنا طُرح السؤال : لماذا تقدم الغرب و تخلفنا نحن؟ ما الذي يستوجب فعله حتى نحقق النهوض و التقدم؟ كيف و ماهي أسباب و عوامل التقدم؟...

فكانت النهضة الأوروبية من أهم العوامل الأساسية التي حرّكت مشاعر العرب و المسلمين و نبهتهم الى غفلتهم، و دفعتهم الى الإستيقاظ منها.

و نلاحظ أن النهضة العربية في العصر الحديث هي فقط محاولة ايقاظ العالم العربي الإسلامي من سباته ، مما يدل انه قد وجدت من قبل نهضة عربية إسلامية الاّ انها قد طمست. كذلك الانسان القوي الصلب الذي يهابه الجميع الا انه في مرحلة ما من المراحل يُهزم ثم يدخل في مرحلة ضعف و اكتئاب، و بالتالي فهو بحاجة الى شخص يساعده و يعينه على النهوض حتى يستجمع قواه مرة أخرى. و هذا ما أراد ان يقوم به مفكروا النهضة العربية ، و هو استرجاع هيبة العالم العربي الإسلامي.

⁵ موسى بوبكر ، المرجع السابق ص 8

فموضوع النهضة يأتي في سياق تاريخي طويل ممتد من قيام بدأ الدولة الإسلامية و وضعها لنموذج الدولة و نموذج جديد للحضارة البشرية ، و مروراً ببداية الهجوم العالم الغربي الكبير من القرن الحادي عشر على العالم الإسلامي ، و انتهاءً بنجاح المشروع الغربي في تفتيت العالم العربي الإسلامي ، و السيطرة على مقدراته ، و فرض التخلف عليه و إدامته، ثم حركة الاحياء الإسلامي و النهضة الإسلامية التي بدأت مع هذا الزلزال الكبير الذي بدأ سنة 1900م او الذي تجلى سنة 1924م - في عبارة اصح - حين اعلن عن سقوط الخلافة الإسلامية.⁶

فالجذور الأولى لبداية عصر النهضة بدأت مع القرن التاسع عشر ميلادي ، و امتدت حتى القرن العشرين بعدما تعرضت البلدان العربية و الإسلامية الى الاستعمار الأوروبي الذي نبه العرب الى تخلفهم و بالتالي حاولوا التصدي له و مجابهته ، و مواجهة هذا التخلف و الانحطاط الذي لحق بهم ، و الالتحاق بركب الحضارة و التقدم ، و هذا تحت زعامة و قيادة العديد من المفكرين أمثال جمال الدين الافغاني و رافعة رفاة الطهطاوي* و محمد عبده ، و غيرهم من المفكرين الذين ساهموا في بلورة فكر النهضة العربية.

3- عوامل قيام النهضة العربية في العصر الحديث :

إنّ النهضة العربية هي حدث تاريخي ككل الاحداث التاريخية الأخرى لها أسبابها و عواملها التي أدت الى قيامها ، و من جملة هذه العوامل :

أ- عوامل سياسية :

أ1- توسع الدولة العثمانية في الدول العربية الإسلامية : حيث أخذت هذه الإمبراطورية لنفسها مركز الطبقة المهيمنة والسيطرة على المجتمعات العربية⁷ ، نظراً لامتلاكها للجيش الانكشاري الذي يُعدّ مصدر قوتها.

6 جاسم السلطان ، استراتيجية الادراك من الصحوة الى اليقظة ، ام القرى ، ط4 ، 2010 ، ص 23

*رفاعه رافع الطهطاوي ولد سنة 1801 و توفي سنة 1873م نشأ في طهطاودرس في الازهر، انتدب اماما سنة 1826م للمبعوثين المصريين فتأثر بما شاهد فيها. عمل مترجما و مديرا لمدرسة اللغات و محررا في جريدة الوقائع المصرية. من اهم مؤلفاته (تخليص الابريز في تلخيص باريس) و (المرشد الأمين في تربية البنات و البنين). : انظر رؤوف سلامة موسى، موسوعة احداث و اعلام مصر و العالم، مكتبة المعارف، بيروت، ط1 ج2، 2001 ص652.

7 البرت حوراني، الفكر العربي الحديث و المعاصر، ترجمة : كريم عركول، دار النهار، بيروت ، 1968، ص40

فالدولة العثمانية كانت بمثابة دولة دكتاتورية ، فقد مارست هاته الدولة ذات العاصمة التركية و الأطراف القومية المتعددة الانتماءات ابشع الممارسات على الصعيد السياسي من خلال اعتماد الصلاحيات المطلقة للسلطان 8 ، فقد كان الحاكم فيها هو السلطان الذي يعد بمثابة الخليفة الإسلامي المطلق حيث كل شئ يتحرك بأمره و ينتهي بنواهييه. و بالتالي قد عرفت المجتمعات العربية التي كانت خاضعة لسيطرة الدولة العثمانية حوالي أربعة قرون ، تدهوراً و انحطاطاً على جميع المستويات.

2- سقوط الدولة العثمانية: يمثل القرن التاسع عشر ميلادي بداية انحطاط الدولة العثمانية ، ولقد شهدت الدولة العثمانية آنذاك فساداً طغى على كل الجوانب الحياتية، مما أدى إلى ضعف قوة الجيش الإنكشاري الذي كان مصدر قوتها وفساد الإدارة والجانب التعليمي، إذ تراجع الإبداع الفلسفي وتوقف الاجتهاد الفقهي وانحطاط الأدب في جميع فروعه ، بالإضافة إلى انحطاط الزراعة وتقلص مساحاتها في جميع البلدان العربية.

أما التجارة فأنعدم الشرط الأساسي لازدهارها وهو سلامة شخصية التاجر وممتلكاته⁹.

و من بين أسباب سقوط الدولة العثمانية ، التوسع الجغرافي للدول الأوروبية شرقاً و غرباً في البلدان العربية ، و اكتشاف أمريكا (العالم الجديد) و تطور الصناعة و الحرف اليدوية نتيجة الثورة الصناعية التي عرفتها أوروبا ، و التي أدت الى تطور الأسلحة و الدخيرة.

3- الاحتلال الأوروبي للدول العربية كاحتلال فرنسا للجزائر و إيطاليا لليبيا و بريطانيا لمصر... الخ. فبعد ان ضعفت الدول العربية و الإسلامية و دخلت في مرحلة التخلف و الانحطاط فتحت الباب امام اطماع الدولة الاستعمارية الأوروبية لنهب ثرواتها و الاستيلاء على أراضيها و الاستفادة من خيراتها.

ب- العوامل الفكرية :

8 بلال نعيم، الفكر الإسلامي بين النهضة و التجديد، دار الهادي، بيروت، ط1، 2004، ص23.

9 أحمد برقاي، محاولة في قراءة عصر النهضة، الاهلية للطباعة و النشر، ط2، 1999، ص ص 23-24

ب1- حملة نابليون بونابرت* على مصر حيث ساهمت هاته الحملة في انتشار نوع من روح الثقافة و الوعي بين ارجاء الشعوب العربية ، في وسط لطالما ساد فيه الجهل و انتشرت فيه البدع و الخرافات.

فعن طريق هاته الحملة اطلع العرب على منجزات أوروبا ومخترعاتها الحديثة ، حيث اصطحب نابليون معه طائفة من علماء فرنسا ونوابغها في مختلف الميادين والاختصاصات (الرياضيات, الهندسة, الطب, الفلك, ...) بالإضافة إلى استحضاره لبعض الرسامين والمصورين والموسيقين والضباط والجنود وغيرهم ، وجلب معه أيضا مطبعتين إحداها فرنسية وأخرى عربية وأنشأ دواوين وأقام مسرحاً للتمثيل ، وأصدر كذلك مجموعة من الجرائد والصحف¹⁰. هذا بالإضافة إلى انشاء الجمعيات كالجمعية العلمية المصرية سنة 1798م.

و كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على مصر و الشام عام 1798م ، بداية التغيُّر و التبدُّل الذي بلور فكر النهضة العربية ، فقد تعرّض المشرق العربي لصدمة فكرية و ثقافية و اجتماعية عنيفة ، و من هذه اللحظة التاريخية حاول المفكرون العرب صياغة خطاب فكري يبرز الهوية العربية لرد التحدي الأوروبي و إعادة التوازن للذات من خلال أنماط الوعي و الروابط الاجتماعية و السياسية القائمة¹¹.

ب2- البعثات العلمية التي قام بارسالها محمد علي باشا**، فقد أوفد البعثات العلمية إلى العواصم الأوروبية، واستقدم الأساتذة والخبراء والمدرّبين ، و أنشأ المدارس و المعاهد

*نابليون بونابرت : عسكري و امبراطور فرنسي (1769-1821) تخرّج من اكااديمية باريس العسكرية, قام في 1798 بحملته على مصر لقطع طريق الانجليز على الهند, فتحت حملته على مصر نوافذ نحو التقدم و التطور. انظر رؤوف سلامة موسى, موسوعة أحداث و اعلام مصر و العالم, مكتبة المعارف, بيروت, ط1, ج1, 2001, ص 1098.
9 شاوشي فوزية وكراس الزهرة, إشكالية النهضة عند محمد عبده, مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر تخصص فلسفة عربية حديثة و معاصرة, جامعة الجبالي بونعامة خميس مليانة ، سنة 2017/2016، ص 15
11 فادي قذري أبوبكر ، اتجاهات الخطاب الفكري العربي النهضوي و إشكالاته، 16 جويلية 2016، 28 : 02 ضمن موقع :

**محمد علي باشا : عسكري ونائب ملك مصر ولد سنة 1769 و توفي سنة 1849م ، درس العسكرية لم يتعلم الق اراء و الكتابة حتى بلغ 45 عاما، تركزت إصلاحاته على الجيش ولم تستمر بعد عثر أطماعه عسكرية. انظر: رؤوف سلامة موسى، موسوعة أحداث وأعلام مصر والعالم، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، ج2 2001، ص ص 1000- 001..

المختلفة. فأرسل أول بعثة علمية الى إيطاليا عام 1813م. ثم اتجهت انظاره الى فرنسا و بريطانيا حيث بلغ مجموع الطلاب الذين اوفدهم نحو ثلاثمائة وتسعة عشر طالبا و على رأسهم رفاة الطهطاوي ، و كانت هذه البعثة من أهم العوامل الفكرية التي ساعدت المفكرين والفلاسفة على الانفتاح على الحضارة الغربية.¹²

و قد أنشأت أيضا في عهد محمد علي عدة مدارس للطب و الفنون و تأسس جمعيات, و أصدرت عدة جرائد و مجلات خاصة في مجال الادب العربي ، حيث ألفت الكثير من القصص و الروايات و تُرجمت كذلك من اللغة الأجنبية الى اللغة العربية. بالإضافة الى الاهتمام بالتمثيل و المسرح الذي كان شائعا في الأوساط الأوروبية.

ج- عوامل اجتماعية :

ج1- ظهور الطبقات الاجتماعية في مختلف الدول العربية التي كانت خاضعة لسيطرة الدولة العثمانية كمصر و الجزائر و تونس... الخ. مما جعل سكانها ينقسمون الى فئتين :

مسلمين و أهل الذمة ، و لما كان المسلمون هم الفئة المسيطرة سياسيا ، فقد تمتعوا بحقوق المواطنة و واجباتها كاملة. مثل تولي مختلف المناصب السياسية و الإدارية و القضائية و العسكرية ، و فُرض عليهم مقابل ذلك الجهاد او الخدمة العسكرية.

أما أهل الذمة و هم اليهود و النصارى و الصابئة ، فقد منحوا الحق في تطبيق شرائعهم الدينية في أمورهم الخاصة و أحوالهم الشخصية و فرضت عليهم الجزية كضريبة يدفعونها سنويا¹³. و قد كان المسلمون يشكلون الغالبية العظمى ، بينما اهل الذمة كانوا أقليات صغيرة، كما انقسم المسلمون بدورهم الى سنة و شيعة و الدروز و النصيرية.

أما من الناحية الاقتصادية فقد انقسم المجتمع العربي الى ثلاثة طبقات : الاقطاعيين و الفلاحين و التجار ، فالإقطاعيون في غالب الأحيان ، من القادة العسكريين أو الزعماء المحليين او شيوخ القبائل¹⁴، و هم فئة لهم السلطة المطلقة و الصلاحية في كل شيء سواء في الضرب او الجلد او السجن.

¹² علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، 1987، ص 205

12 المرجع نفسه ص 159

13 المرجع نفسه ص 159

أما الفلاحون فهم فئة لا حول لهم ولا قوة، مُستغَلِّين من طرف الاقطاعيين.

و أما التجار فكانوا يعيشون في المدن و يتمتعون بثروة كبيرة ، و الى هذه الطبقة ينتمي رجال الدين.

و كنتيجة لهذا التقسيم الطبقي في المجتمعات العربية الذي ظهر نتيجة للغزو الأوروبي او حتى العثماني ، ظهر فئة من الناس و المفكرين الذين ثاروا ضد هذا الظم و الاستبداد الذي طُبِّق عليهم و أرادوا تغيير هذا الوضع، بتقسيم عادل يكفل الحرية و المساواة للجميع.

ج2- تعليم المرأة :

"كانت المرأة العربية قبل القرن التاسع عشر تعيش حياة المساجين، يسيطر على عقلها الجهل و الخرافات ، لا تخرج من البيت الا لأضرورة قصوى و لا تدرس و لا تعمل، فكانت مجرد جارية في البيت تمارس شؤون المنزل من تربية و طبخ و تنظيف و غير ذلك، و أداة للإستماع في الفراش، فكانت لا تعرف شيئاً من وراء دارها، ضيقة العقل محصورة الأفق"¹⁵.

و قد ساهمت حملة نابليون على مصر بالتعريف بوضع المرأة و مكانتها في أوروبا، و ما وصلت اليه من حرية و استقلال. غير ان الحملة الفرنسية لم تكن السبيل الوحيد الذي تعرّف المصريون من خلاله على وضع المرأة الأوروبية ، فقد كان لطلبة البعثات الذين اوفدهم محمد علي باشا الى أوروبا و الخبراء الأجانب الذين اسقدمهم للعمل في مصر ، سبيلاً اخر¹⁶، فنجد رفاة الطهطاوي الذي ذهب الى فرنسا قد دهشته الحياة التي تعيشها المرأة هناك و ما تتمتع به من حرية و استقلال ، و بالتالي كتب كتابه الشهير (تخليص الابريز في تلخيص باريس)، و فيه دافع عن حرية المرأة العربية مبيناً ما يجب ان يُؤخذ و يُرد من القيم الغربية حتى لا يكون هناك تعارض مع الشريعة الإسلامية. و نجد أيضاً من المدافعين عن حرية المرأة و تعليمها قاسم امين* الذي كتب كتابا بالاشتراك مع محمد عبده بعنوان (تحرير المرأة).

¹⁵ رحاب عكاوي ، اعلام الفكر العربي الامام الشيخ محمد عبده في أخباره و اثاره ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط 1، 2010 ص23

¹⁶ علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، مرجع سابق ص 185

*قاسم امين قاضي و رائد تحرير المرأة المصرية ولد سنة 1862 و توفي سنة 1906م ، تقلد مناصب قضائية مختلفة و كتب كتاب (المصريون في الدفاع عن الإسلام) ثم (تحرير المرأة) ثم (المرأة الجديدة)، شارك في انشاء الجامعة المصرية و الجمعية الخيرية الإسلامية. انظر : رؤوف سلامة موسى، موسوعة احداث و اعلام مصر و العالم، مكتبة المعارف بيروت، ط1، ج2، 2001، ص ص 64 65.

بالإضافة الى مفكرين اخرين كجمال الدين الافغاني و أحمد لطفي السيد* و الطاهر الحداد** و غيرهم ممن ناضلوا في سبيل حرية المرأة. فمحاولات النساء الإنعتاق من هيمنة التقاليد الذكورية ، لم تكن لنتجح في خلق حركة جماعية ترفع صوت المرأة و حقوقها الإنسانية المشروعة لولا مساعدة هؤلاء المستنيرين من الرجال¹⁷.

هذه أهم العوامل التي ساهمت في قيام النهضة العربية في العصر الحديث والتي كانت سببا في قيام و افاقة الشعوب العربية من سباتها و تخلفها مطالبة برد الظلم و استرجاع الحقوق و الكرامة و الحرية من أجل التقدم و التطور والالتحاق بركب الحضارة و رسم مستقبل مشرق منير.

المبحث الثاني : الاتجاهات العامة للنهضة العربية

لقد عرف العالم الإسلامي خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر انحطاطا و تدهورا لا مثيل له على كافة المستويات ، متمثلا في انتشار الجهل و البدع و الخرافات و فساد الحكومات و الأنظمة السياسية.

كل ذلك وّلد مجموعة من الحركات و الاتجاهات تزعمها مفكرون حاولوا بمشاريعهم اصلاح تلك الأوضاع المزرية، و ان اختلفوا في الوسيلة ، الا أنّ هدفهم كان واحداً. و من أهم تلك الحركات و الاتجاهات :

1- الاتجاه الديني :

او اتجاه الإصلاح الديني و يمكننا تقسيمه الى ما يلي :

أ- الحركة الدينية السلفية : و تنقسم بدورها الى :

أ 1- الحركة الوهابية : و تنسب الى الشيخ محمد ابن عبد الوهاب* و من اهم مبادئها :

* احمد لطفي السيد قانوني و مفكر سياسي مصري ولد سنة 1872 و توفي سنة 1963م تخرّج من كلية الحقوق الخديوية سنة 1894م ، تولى رئاسة النيابة في 1892 و انضم الى الجمعية السرية التي أدت الى قيام الحزب الوطني, اصدر الجريدة سنة 1907م و في 1915 تولى إدارة دار الكتب. في 1928 اصبح وزيرا للمعارف و رئيسا للمجتمع اللغوي كما نادى بتبسيط اللغة العربية. انظر : رؤوف سلامة موسى, موسوعة احداث و اعلام مصر و العالم, مكتبة المعارف بيروت, ط1, ج2, 2001, ص 923.

** الطاهر الحداد : من مواليد 4 ديسمبر 1899 و توفي في 7 ديسمبر 1935 ، هو مفكر،نقابي وسياسي تونسي. وقام بحملة لتطور المجتمع التونسي في مطلع القرن العشرين. ومن المعروف أنه خاض نشاطا من أجل حقوق العمال النقابية التونسية، و تحرير المرأة التونسية ومنع تعدد الزوجات في العالم المسلم. الطاهر الحداد هو صديق للشاعر أبو القاسم الشابي والنقابي محمد علي الحامي انظر : رؤوف سلامة موسى, موسوعة احداث و اعلام مصر و العالم, مكتبة المعارف بيروت, ط1, ج2, 2001, ص ص

¹⁷ عواطف عبد الرحمن ، تحرير المرأة العربية قضية المجتمع ، 24 جوان 2014 ، 51 : 16، ضمن موقع :

<https://www.alhayat.com/article/836625>

- العودة بالإسلام الى أصوله الأولى او الى عصره الأول و هو عصر النبي و الصحابة.
- التوحيد ويتمثل في شهادة ان لا اله الا الله و ان محمد رسول الله فالله هو الخالق الواجب عبادته و الاستغاثة به¹⁸. و التوحيد نوعان توحيد الربوبية و توحيد الالهية ، فتوحيد الربوبية بمعنى الايمان بان الله تعالى خلق الخلق كله بما فيهم الأنبياء و الرسل و الملائكة ، اما توحيد الالهية بمعنى ان لا يُعبد الا الله ، فالله هو الوحيد الذي يستحق العبادة لا غير.
- انكار تأويل القران الكريم و تكفير كل من يقوم بتأويله ، لقوله عز و جل ﴿و ما يعلم تأويله الا الله﴾¹⁹

- فتح باب الجهاد بعد ان ظل مغلقا منذ القرن الرابع هجري.

- اجبار المسلمين على القيام بالصلاة و الزكاة و الصوم و معاقبة كل من يخالف ذلك

أ 2- الحركة الشوكانية :

- جاءت هذه الحركة كرد فعل على الحركة الوهابية ، مؤسسها الشيخ محمد ابن علي الشوكاني* ، وقد نادى بجملة من المبادئ أهمها :
- الاعتماد فقط على القران و السنة في الأحكام الدينية ، و ما دون ذلك فهو عرضة للنقد و الخطأ
- تنقية الإسلام مما لحق به من بدع و ضلالات ، معتمدا في ذلك على باب التوحيد ، الذي سبقه اليه الشيخ محمد ابن عبد الوهاب²⁰.
- رفض التقليد و فتح باب الاجتهاد.

*محمد بن عبد الوهاب ولد سنة 1703 و توفي سنة 1791م بنجد، تعلم فيها ثم إنتقل إلى المدينة المنورة وتلمذ على يد شيوخها، تأثر بابن تيمية ، وابن قيم الجوزية، صادفت دعوته نجاحا كبيرا في العالم العربي، من مؤلفاته: كشف الشبهات، كتاب الكبار .أنظر: فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري العرب، دار الشروق، ط3، 1988، ص 595.

¹⁸ علي المحافظة ، المرجع السابق ص 40

¹⁹ سورة ال عمران الآية 07

*محمد ابن علي الشوكاني ولد سنة 1760 و توفي سنة 1834م بالصنعاء، مفسر وفقه وقاضي، له مجموعة من المؤلفات نذكر أهمها :إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول .أنظر :عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 ، ج 3، 1993، ص 541

²⁰ علي المحافظة ، المرجع السابق ص 46

- "جمع الاحاديث الصحيحة في كتابه (نيل الاوطار شرح شرح منتقى الاخبار من احاديث سيد الاخيار) 21 ، و قد اعتمد على هذه الاحاديث في معظم ارائه.
- الإصلاح الاجتماعي ، حيث برزت أفكاره الإصلاحية في كتابه (السيل الجرار) ، و خاصة بالنسبة الى دعوته المرأة الى العمل ، و مساعدة أهلها و زوجها في كسب عيشهم 22.

أ 3- الحركة السنوسية :

مؤسسها محمد ابن علي السنوسي** ، نادت هذه الحركة أيضا بمجموعة من المبادئ أهمها :

- العودة الى العصور الأولى الذهبية للإسلام.
- اعتبار القرآن و السنة مصدر التشريع.
- رفض التقليد و فتح باب الاجتهاد.
- تنقية الإسلام من البدع و الخرافات التي لحقت به.
- الايمان بفكرة المهدي المنتظر، و هاته الفكرة تميز بها السنوسيون دون غيرهم من الحركات الأخرى.

ب- الحركة التجديدية الإصلاحية :

رائد هذه الحركة هو السيد جمال الدين الافغاني ، و من بين اهم النقاط و المبادئ التي نادى بها :

- وجوب الرجوع الى الدين الإسلامي، لأنّ من أسباب تخلف العرب و المسلمين هو تركهم و ابتعادهم عن دينهم، مما آل بهم الى الوضع الذي يعيشونه الآن، فالدين الإسلامي كان من اهم العوامل التي ساعدت على قيام الحضارة الاسلامية.
- تحرير التقليد و فتح باب الاجتهاد و التأويل، و في هاته النقطة يشترك الافغاني مع الحركات الدينية السالف ذكرها.
- التوفيق بين الدين و العلم ، و اذا وُجد تعارض بين الطرفين فوجب تأويل الايات القرآنية و تفسيرها تفسيراً جديداً.
- الدعوة الى الوحدة بين المسلمين و تحقيق مبدأ التآخي و التآزر و التعاون .
- اهتم الافغاني بالكفاح ضد الديكتاتورية الداخلية و الاستعمار الأوروبي ، و اعتبرهما من

21 المرجع نفسه ص 48

22 المرجع نفسه ص 49

**محمد ابن علي السنوسي، ولد سنة 1787 و توفي سنة 1859م، بمستغانم في الجزائر، مؤسس الطريقة السنوسية، بنى الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر، من مؤلفاته: المنهل الرائق في الأصول والطرائق. أنظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 ، ج3 ص 514.

أولى الوظائف التي يجب التركيز عليهما²³ ، و قد اعتبرهما كذلك من اكبر أسباب تخلف المسلمين.

- ضرورة الاطلاع و النهل من كتب التيارات الفكرية الغربية و اخذ ما يتوافق فقط مع الشريعة الإسلامية ، و ترك ما يتعارض معها.
- الدعوة الى توحيد الفرق الإسلامية ، فقد استنكر جمال الدين الافغاني انقسام المسلمين الى سنة و شيعة، و سعى الى إزالة الخلاف بين الفريقين²⁴، و هذا الخلاف هو سبب تدهور و تخلف المسلمين.

2- الاتجاه العلماني :

ظهرت العلمانية لأول مرة في أوروبا ، و كان يُقصد بها فصل الدين عن السياسة . و من بين اهم الأسباب التي أدت الى ظهور العلمانية هو الاشتباكات التي وقعت في عصر النهضة و عصر الانوار بين المفكرين و رجال الدين بسبب الاحتكار و التسلط الذي كان يمارسه رجال الدين في مختلف نواحي الحياة ، من طغيان و فرض العقاد على الناس بالقوة . فكان التفكير و العقل آنذاك لا يجب ان يخرج عن تفكير الكنيسة. و كل من يفكر خارج هذا الاطار فهو زنديق و مرتد و يُحكم عليه بالسجن ، و أحيانا الموت.

و نلاحظ ان كل هذه الاسباب و الأوضاع التي أدت الى ظهور العلمانية في أوروبا ، مشابهة جدا لما هو موجود في العالم العربي الإسلامي. و بالتالي ظهر اتجاه سمّي بالاتجاه العلماني ، نادى بتطبيق و ادخال العلمانية الى العالم العربي و الإسلامي و جاء كرد فعل على اتجاه الإصلاح الديني. حيث سعى انصار هذا الاتجاه الى تطبيق الدولة المدنية في الدول العربية تحت شعار فصل الدين عن الدولة و ترك الدين كمسألة شخصية بين الانسان و خالقه و عدم إدخاله في السياسية او فرض قوانينه و شرائعه على المجتمعات.

و من اهم وأوائل دعاة هذا الاتجاه نذكر :

²³ بلال نعيم، الفكر، المرجع السابق ص ص 75-76

²⁴ علي المحافظة، المرجع سابق، ص 77

*شبلي الشميل طبيب ومفكر مصري لبناني ولد (1850-1918) درس بالكلية السورية البروتستانتية ثم بإسطنبول وباريس،

جاء إلى مصر لممارسة الطب سنة 1875م وأصدر مجلة الشفاء في 1910 وقد حاول أن ينشأ حزبا اشتراكيا. انظر رؤوف

سلامة موسى، موسوعة أحداث وأعلام مصر والعالم، مكتبة المعارف، بيروت، ط1 ، ج2، 2001، ص ص 600-601

2 أ- شبلي الشميل : فشبلي الشميل* من أوائل من ادخلوا هذا المفهوم الى المجتمعات العربية الإسلامية، و قد نادى بمجموعة من المبادئ أهمها :

- العلم هو اهم ما في هذا الكون و مفتاح اسرار العالم و وسيلة لاكتشاف القوانين.
 - إعادة صياغة و تأسيس مناهج دراسية أخرى تعتمد على العلم فقط بدل الدين.
 - نادى بضرورة هدم مدرسة الحقوق المصرية ، و استبدالها بمدارس علمية للكيمياء و الطبيعيات و الميكانيك و الرياضيات 25 ، و هذا ما يدل على انه كان يمجد العلم.
 - الدعوة الى تدريس العلوم الطبيعية في المدارس الابتدائية، و ذلك من اجل فهم الواقع الطبيعي الذي يعيش فيه التلاميذ ، و الاهتداء بقوانينه لبناء مدينة جديدة بطريقة علمية واقعية 26
 - ضرورة فصل الدين عن الدولة و العلم، فالسبيل الوحيد لاجراج المجتمعات العربية من دائرة الجهل والتخلف هو فصل الدين عن الدولة، مثل ما فعلت الدول الأوروبية و الدول الغربية. فالدول الأوروبية حسب شميل تطورت بعد ان نزعتم الدين من احضان السلطة و قضت على رجاله ، و اعتمدت كلية على العلم و الاكتشافات العلمية .
- 2 ب- فرح انطوان :

فرح أنطوان* من اهم رواد العلمانية و من أوائل من دعو اليها، و قد اتفق مع شبلي الشميل في ضرورة فصل الدين عن الدولة و الاهتمام بالعلم و الاكتشافات العلمية. و من اهم النقاط التي دعا اليها :

- فصل الدين عن الدولة
- ضرورة تحقيق المساواة بين الافراد ، بغض النظر عن مذاهبهم و معتقداتهم ، لأن المجتمع الصالح يقوم على المساواة المطلقة بين جميع أبناء الامة ، مساواة تتعدى الفروق في الأديان 27
- الاهتمام بالعقل و تفعيل دوره في الحياة، وهذا ما نجده عند كل من محمد عبده و جمال الدين الأفغاني.

25 علي المحافظة الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، مرجع سابق ص 273

26 المرجع نفسه ص 237.

*فرح أنطوان : أديب و روائي مصري ولد سنة 1874 و توفي سنة 1922م ، نشأ في طرابلس و جاء الى مصر في 1897م حيث أسس مجلة الجمعية العثمانية، نقل بعض عيون الأدب الفرنسي المكافح للعربية، و حرّر في اللواء و أصدر في الجامعة مباحثته الدينية مع محمد عبده، ثم هاجر الى الولايات المتحدة في 1906م ثم عاد الى مصر و حرّر في صحيفتي " المحروس" و " الأهالي" ، من أشهر مؤلفاته (ابن رشد و فلسفته). انظر رؤوف سلامة موسى، موسوعة أحداث و أعلام مصر و العالم، مكتبة المعارف، بيروت، ط1 ج2، 2001، ص ص 738-739.

27 موسى بوبكر، المرجع سابق، ص 109

- نزع مفاتيح السلطة من ايدي الفقهاء و رجال الدين لان في ذلك ضرر على المجتمعات و الامة.

- دعا فرح أنطوان الى الاشتراكية ، حيث يرى بأنها الوسيلة التي ستوصل الناس الى الحرية و العدالة و المساواة و الاخاء و الازدهار...، فالمبادئ الدينية تعدّ الناس بالسعادة و الهناء في الآخرة، و اما المبادئ الاشتراكية فانها تعد الناس بسعادة في هذه الدنيا²⁸.

3- الاتجاه القومي:

حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم ، على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الدين . وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا. بدأت تيارات القومية العربية مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قادها زعماء و مفكرون سعوا الى تغيير الواقع العربي و كان أغلبهم مسيحيون عرب . و من دعاة هذا الاتجاه نذكر :

3 أ- نجيب العازوي :

يُعد نجيب العازوي* أحد المفكرين الذين نادو بفكرة القومية العربية ، حيث انشأ (عصبة الوطن العربي) في باريس بهدف تحرير الولايات العربية من الحكم التركي. ونشرت العصبة حوالي خمسين نداءً موجهاً الى العرب تدعوهم الى الثورة على الاتراك²⁹، و من أهم ارائه :

- الدعوة الى ضرورة فصل الولايات العربية عن الولاية العثمانية التركية و توحيد العراق و الشام تحت دولة عربية واحدة. حيث يرى أن الاتراك هم الذين سببوا الخراب و التخلف للعرب، و لولاهم لكان العرب اليوم متقدمون لانهم متفوقون على الاتراك في كل شئ³⁰. و لهذا يرى انه يجب على العرب و الاكراد و الارامن ان ينفصلوا عن الإمبراطورية العثمانية حتى تنفوس أركانها.

- توحيد الكنائس الكاثوليكية تحت اسم الكنيسة الكاثوليكية العربية.

- الامة العربية تضم المسلمين و المسيحيين معا، وليس المسلمين فقط.

²⁸ فرح أنطوان، ابن رشد و فلسفته، درا الطليعة، بيروت، ط1، 1981، ص 169.

*نجيب العازوي عروبي لبناني ولد سنة 1881 و توفي سنة 1916م أول من أنشأ حزبا قوميا عربيا في عام 1904 ومن الأوائل الذين نبهوا إلى الخطر الصهيوني. أنظر: رؤوف سلامة موسى، موسوعة أحداث وأعلام مصر والعالم، مكتب المعارف،

بيروت، ط1 ، ج2 ، 2001، ص 661

²⁹ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، مرجع سابق ص 134.

³⁰ بلال نعيم ، المرجع سابق ص 108.

- حدود الامة العربية هي جميع البلدان الناطقة بالضاد في اسيا باستثناء مصر و شمال افريقيا. فمصر لم تكن ابدا عربية بالكامل.

- المشاكل الدينية هي مشاكل سياسية تصطنعها القوى الخارجية لمصلحتها الشخصية³¹

- يجب على الدولة العربية ان تكون دولة دستورية ليبرالية، يحكمها سلطان عربي مسلم يحترم اسقلال لبنان و نجد اليمن.

3 ب- قسطنطين زريق :

قسطنطين زريق** هو أحد دعاة الاتجاه القومي في العصر الحديث، نادى باحداث ثورات عربية من اجل تغيير الواقع العربي، و تمثلت اهم مبادئه فيما يلي :

- يرى ان مشكلة العرب اليوم سببها عدم امتلاك العرب للعقيدة ، و يقصد بالعقيدة (عقيدة القومية)

- بدون عقيدة لا يمكن ان تخضع رغباتنا و شهواتنا لمؤسسة.

- يجب ان تكون هاته العقيدة مستوحاة من الدين الإسلامي ، لانه دين العرب.

- ان القومية هي العقيدة التي نفتقر اليها اذ أنها تُؤدّ الشعور بالمسؤولية المشتركة و الإرادة في خلق المجتمع و في المحافظة عليه³². فالقومية تخلق لنا فردا صالحا، لبناء مجتمع صالح متطور و متكامل من كل النواحي.

- ميز زريق بين الروح الدينية و العصبية الطائفية ، و قال بأن التمييز بين هذين الامرين قائم على حقيقتين :

* انطواء جميع الأديان على جوهر واحد للحقيقة.

* المبادئ الدينية الخلقية هي نفسها المطلوبة لبناء مجتمع مستقر و مزدهر³³.

*على العرب اذا ما ارادوا القيام بنهضة ان يقتبسوا من المؤسسات و العلوم التي اقتبس منها الغرب ، لكن هذا الاقتباس لا يتعدى حدود الشريعة الإسلامية.

³¹ المرجع السابق ص 108

**قسطنطين زريق مؤرخ لبناني سوري الأصل ولد سنة 1909 و توفي سنة 2000م نشأ في دمشق و عمل وزيرا مفوضا لسوريا في واشنطن ثم أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت من مؤلفاته: "معنى النكبة" -"ما العمل" -"نحن والتاريخ". انظر رؤوف سلامة موسى ، موسوعة أحداث وأعلام مصر والعالم، مكتب المعارف، بيروت، ط1 ، ج2 ، 2001، ص ص 465-466

³² بلال نعيم ، المرجع السابق ص 110.

³³ المرجع نفسه ص 111.

المبحث الثالث : أهم مفاهيم النهضة العربية

1- مفهوم الحرية :

ان كلمة "الحرية" كلمة شديدة التعقيد و الشرح ، يختلف معناها و مفهومها باختلاف سياقاتها الزمانية و المكانية ، فهي تعنى عند اليونان القدماء المصير و الضرورة و الصدفة ، ثم جاء سقراط و افلاطون و ارسطو و عدلوا هذا المفهوم و أعطوه معنى اخلاقي ليرتبط بالخير و ضبط النفس و العقل و الإرادة.

و هي تعني في العصر الحديث امكان الانسان لان يفعل ما يريد و ما يراه مناسباً في حياته و تصرفاته و اختياراته.

و تعني عند العرب المسلمين حدود الانسان وفقاً للقوانين التي شرعها الله و رسوله ، أي أنت حرٌ في إطار الشرع.

و يمكن ان نقول ان الحرية بصفة عامة او بمفهومها اليوم (المفهوم الغربي) هي " تحقيق الفعل دون الخضوع لتأثير قوى باطنة سواء اكانت بواعث ام دوافع³⁴ أو هي القدرة على تحقيق فعل او الامتناع عن تحقيقه دون خضوع لاي ضغط خارجي³⁵.

لقد شكل مفهوم الحرية أهم المباحث التي شغلت مفكري عصر النهضة العربية كأداة لبناء الآليات المقاومة للاستبداد و الظلم و القمع، بعد ان أُعطي له معنى جديد يختلف عن المعنى الذي كان سائد في التراث الإسلامي و عند الفقهاء و المتكلمين و فلاسفة الإسلام، اذ كانت معانيه تدور حول مسألة الجبر و الاختيار و القضاء و القدر... الخ، لتأخذ معنى جديد يتصل بالسياسة و الفرد و الاجتماع و الاقتصاد.

و يعتبر رافع رفاع الطهطاوي من أوائل من ادخلوا الحرية بمفهومها الجديد أي الغربي الى الفكر العربي الحديث، و قد حاول ان يزن هذا المفهوم و يجعله يتوافق مع الشريعة الإسلامية. و يقسم الطهطاوي الحرية الى أقسام : الحرية الطبيعية، الحرية الدينية، الحرية السلوكية، و الحرية السياسية و الاقتصادية.

الامر الذي دفع مفكراً اخر و هو مصطفى الغلاييني، ليحدد أنواع هذه الحرية بشكل أدق و متطور، فهي عنده الحرية الفردية، حرية الجماعة، الحرية الاقتصادية، الحرية السياسية³⁶

أما جمل الدين الافغاني زعيم حركة الإصلاح الديني ، فقد كان يرى الحرية بالعودة الى أهل السلف الصالح، وهذا حين يتحدث عنها، يتحدث باطار الحرية الشخصية، التي ليست الا حرية

³⁴ مراد وهبه، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص 275

³⁵ المرجع نفسه ص 275

³⁶ مصطفى الغلاييني، عظة الناشئين، المكتبة الاهلية، مصر، 1995، ص 92

الحركة او محض الحركة الجسمية ، كما أنه يستخدم الحرية على أنها مقابل السلوك على الطريقة الأوروبية و يقصد الحرية القومية الإسلامية³⁷، أي الاستقلال الوطني سواء بإزالة الاستعمار الشرقي او الاستعمار الأوروبي الغربي .

اما قاسم أمين فارتبطت الحرية عنده بالعلم و التطور، حيث يرى أنه علينا ان نترك للعقل الحرية في ان يفكر و يبحث و ينتقد و يُمحصّ ، وهذا ما فعلته الشعوب الأوروبية و الغربية بصفة عامة، بل يجب ان ندع للعقل مجال البحث و التنقيب حتى في الأمور الدينية.

فنحن تخلفنا بسبب ان منعنا العقل من البحث التفكير و قيدها بحدود الدين ، حيث أصبحنا نفكر فقط داخل الاطار الديني و المعرفة الدينية ، و هذا ما أرادته الفقهاء و رجال الدين، فقد ربطوا العقل و قيده بالدين و كل من يخرج و يفكر خارج الاطار الديني فهو زنديق. فأصبح الشاعر لا يخرج شعره عن الاطار الديني و الفنان لا يخرج فنه عن الدين، و المفكر لا يخرج تفكيره عن الدين...و هكذا.

أما الحرية عند شبلي الشميل فقد ارتبطت بالعلم و التطور و التغيير و التجديد المستمر، أي تغيير الانسان تغييرا جوهريا بحيث يتجدد كليا ، من خلال تجديده لأفكاره و فلسفته و آرائه و معتقداته و غير ذلك.

اذن فقد تعددت معاني و مفاهيم الحرية عند مفكري عصر النهضة العربية و اختلفت معانيها عما كانت عليه قبل ذلك، و أصبحت حاجة ضرورية للمواطن العربي من أجل الخروج من الواقع المؤلم الذي يعيشه. سواءً تعلق الامر بحرية الفكر او حرية العقيدة او حرية الاختيار أو حرية المرأة او الحرية السياسية...الخ.

2- مفهوم العقل :

يُعرّف ابن منظور العقل بأنه " التمييز الذي يتميز به الانسان من سائر الحيوان " ³⁸ ، فالعقل اذن هو الخاصية التي تميز الانسان عن سائر المخلوقات في هذا الكون ، وقد سُمي العقل عقلا لأنه يمنع صاحبه عن التورط في المهالك، و لهذا يقال في اللغة العربية ان العقل يمنع صاحبه من الوقوع في القبيح"³⁹.

اما فلسفيا فالعقل هو جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله و هي النفس الناطقة ، و العقل مأخوذ من عقل البعير يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل ، و الصحيح أنه يدرك الغائيات بالوسائل و المحسوسات بالمشاهدة⁴⁰.

³⁷ موسى بوبكر، المرجع السابق ص ص 139-140

³⁸ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله العلايلي، ص 845

³⁹ مراد وهبة، المعجم الفلسفي، المرجع السابق ص 423

⁴⁰ المرجع نفسه ص 423

و قد احتل مفهوم العقل في الفكر العربي الحديث مكانة مرموقة، حيث حاول رواد و مفكري عصر النهضة العربية ابرازها و الوقوف عندها.

فقد رأى جمال الدين الافغاني بأن ما يميز الانسان عن غيره هو العقل، و يرى بأن العقل يمكنه ان يتوصل الى كل ما هو حقيقي و حتى التصورات التي اعتبرها الفقهاء مستحيلة. يقول جمال الدين الافغاني : " ان الانسان من أكبر اسرار هذا الكون... و لسوف يستجلي بعقله ما غمض و خفي من أسرار الطبيعة... و لسوف يصل بالعلم و باطلاق سراح العقل الى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا" ⁴¹. كما دعى الافغاني الى تحرير العقل من البدع و الخرافات و الأوهام، و دعم العقائد الدينية بالادلة و البراهين العقلية و قد وافقه في ذلك تلميذه محمد عبده، فتحرير العقل من قيود الجهل و الخرافات أولى الخطوات لتحقيق التنوير و التقدم و الازدهار و التطور.

و يرى زكي نجيب محمود أن أساس قيام أي حضارة مرهون باستعالها الصحيح للعقل ، حيث يعتبر الاحتكام الى العقل ضرورة قصوى لقيام الحضارة، فالعقل المعيار الحقيقي لأيّة حضارة قديما و حديثا.

اما طه حسين فقد تأثر بالفكر الأوروبي الذي يمجّد و يقّس العقل في كونه حرا، و حرّيته لا تكون الا اذا انفصل عن الشرع، يقول طه حسين : " علينا ان نصبح أوروبيين في كل شيء، قابلين ما في ذلك من حسنات و سيئات ، علينا ان نسير سيرة الأوروبيين، و نسلك طريقهم لنكون لهم أندادا و لنكون لهم شركاء في الحضارة خيرا و شرها، حلوها و مرها، و ما يحب منها و ما يكره، و ما يحمد فيها و ما يعاب" ⁴².

3- مفهوم الديمقراطية :

الديمقراطية كلمة يونانية الأصل تتكون من كلمتين أحدهما تعني "حكم" و الثانية تعني "الشعب" ليصبح معنى الكلمة "حكم الشعب"، و الديمقراطية نظام سياسي تكون فيه السيادة لجميع المواطنين ، لا لفرد و لا لطبقة ، و تقوم على ثلاثة أسس : الحرية و المساواة و العدل ، و هي متكاملة و متضامنة.

و الديمقراطية في الحقيقة نظام مثالي يعزو تطبيقه تطبيقا تاما. هذه هي الديمقراطية السياسية ، اما الديمقراطية الاجتماعية فهي أسلوب حياة يقوم على المساواة و حرية الرأي و الفكر، و ينشد العدالة الاجتماعية ⁴³.

و كما نهل مفكري عصر النهضة العربية من الغرب مفاهيم الحرية و العقل فقد نهلوا كذلك مفهوم الديمقراطية.

41 محمد عمارة، جمال الدين الافغاني، دار الشرق، ط2 ، ص 222

42 صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية، الإسلامية في العصر الحديث، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ص 186 187

43 إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، مصر ، 1983، ص 86

فالدول العربية أو الإسلامية بصفة عامة ، كانت تعتمد على نظام الخلافة و الشورى، هذا النظام الذي تكون فيه السلطة المطلقة للحاكم أو كما يسمى بأمر المؤمنين، و التصويت و اختيار الحاكم يكون من طرف كبار مشايخ القبيلة و ذوي السلطة و النفوذ.

فهذا النظام الديني، ككل الأنظمة و الدول الدينية الأخرى، لم يعد صالحا خلال العصور المتقدمة حيث عرف مجموعة من العيوب، كاستبداد الحاكم و طغيانه بالإضافة الى الفساد و الظلم نتيجة تحالف السلطة الدينية و السياسية (الفقهاء و رجال السلطة) ، بل في كثير من الأحيان لا يجوز ان يخرج الفرد عن الحاكم كما رأى مجموعة من الفقهاء. كما ان الدول الدينية تعامل الانسان على أساس دينه لا على أساس إنسانيته، وهذا ما فعلته الدولة الإسلامية التي كانت تعامل المسلمين كفئة او مواطنين من الدرجة الأولى، في المقابل كان يعيش المسيحيون أو أصحاب الديانات الأخرى كمواطنين من الدرجة الثانية عليهم أن يدفعوا الجزية و الا يحاكموا او يقتلوا.

و في المقابل نجد الدول الغربية قد تخلصت من هذه الأنظمة الدينية ، وحلت محلها أنظمة الديمقراطية و العلمانية، التي تتبنى قيم الحرية و التعددية و الحكم الجماعي في مقابل الحكم الفردي، و تعتمد على صناديق الاقتراع ، كما أنّ التصويت و الاختيار فيها تشارك فيه أغلبية الشعوب ، و القوانين فيها تطبق على الناس سواسية سواء كان هذا الانسان مسلم او مسيحي او بوذي...، فمعاملة الانسان لا تكون على أساس دينه او عرقه و انما على أساس إنسانيته ، اما الدين فهو عبادة روحية شخصية بين الانسان و الاله لا دخل له في السياسية .

كل هذا جعل الكثير من مفكري عصر النهضة العربية يبدون اعجابهم بالديمقراطية ، و حاولوا ان يأخذوه و يطبقوه، فمنهم من أراد ان يطبقه حرفيا كما هو ، و منهم من ألبسه لباس الإسلام...و هكذا.

فقد دعا الافغاني الخديوي توفيق بالإسراع في اشراك الامة في حكم البلاد على طرق الشورى فقال : "...فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الامة تسن القوانين و تنفذ باسمكم و اردتكم..."⁴⁴. كما دعا الى تقييد الحكم بواسطة الأحزاب و المجالس النيابية على الطريقة الأوروبية، فكما هو معروف قد انخرط في الحياة السياسية و انتمى الى أحزاب و ألف أحزابا و ساعد على تشكيل أحزاب أخرى. و كانت دعوته الى تشكيل الأحزاب بمثابة صفة موجهة الى حكومة الخديوي و السلطان عبد الحميد و شاه ايران و الحكام المسلمين بصفة عامة. و بالتالي فقد اخذ عن أوروبا قيم الديمقراطية و البسها لباس الإسلام و قد وافقه في ذلك تلميذه محمد عبده و العديد من المفكرين.

هكذا استعار مفكرو عصر النهضة العربية العديد من المفاهيم و المناهج الغربية و حاولوا تطبيقها لعلها تأتي بنتيجة و لعلها توقظ الشعوب العربية و الإسلامية من تخلفها، فمنهم من استعارها و طبقها حرفياً ، و منهم من حاول التوفيق بينها و بين الدين الإسلامي، فأخذ البعض الذي يتوافق مع الشريعة و ترك الآخر، إلا أنهم جميعاً واجهوا صعوبات و مخاطر و تهديدات

⁴⁴ عزة قرني، العدالة و الحرية، سلسلة عالم المعارف، الكويت، عدد حزيران، 1988، ص ص 250-251.

سواء من طرف السلطات الدينية أو السياسة، و بالتّالي باءت أغلب مشاريعهم الإصلاحية بالفشل، فمنهم من كُفر و منهم من نُفي و منهم من طُلِّقت زوجته، و حتى منهم من تعرّض للاغتيال و القتل.

الفصل الثاني
مشروع محمد عبده في
الإصلاح

المبحث الأول : حياة محمد عبده 1- ميلاده و نشأته :

محمد عبده هو أحد كبار مفكرّي عصر النهضة العربية، و من الذين حفروا أسمائهم في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، نظرا لمشروعه الإصلاحى الكبير الذى صنعه و أفكاره التنويرية و مواقفه البطولية في وجه الاستعمار و الظلم و الاستبداد.

ولد محمد عبده في قرية محلة نصر مركز شبراخيت بمديرية البحيرة، في مصر سنة 1266 هـ الموافق ل 1849م⁴⁵، لأب تركمانى و ام مصرية في أسرة عُرِفَت بمقاومتها و وقوفها في وجه الحكام و ظلمهم و تحملها الشديد لشتى أنواع العذاب من السجن و التشرد و الهجرة و غير ذلك. كان ابوه يدعى عبده حسن خير الله ممن رزقوا بسطة في جسومهم و قوة و مرّونا على الرماية، و الفروسية، فكسبوا من الهيبة بقوتهم و بطشهم فوق ماكان لهم من عز و مال⁴⁶.

كان الإمام محمد عبده كما وصفه تلميذه السيد رشيد رضا* : "سليم الفطرة، قدسي الروح، كبير النفس، و صادق تربية صوفية نقية، زهدته في الشهوات و الجاه الدنيوي ، و أعدته لوراثة هدية النبوة، فكان زيتته في زجاجة نفسه صافيا يكاد يضيئ و لو لم تمسسه نار، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نورا على نور"⁴⁷. و قد امتاز محمد عبده منذ صغر سنه بصفات كالذكاء و الثقة بالنفس و طلب العلم و حب التفوق...الخ.

2- تعليمه

تعلّم محمد عبده القراءة و الكتابة في منزل والده و حفظ القرآن الكريم في سنتين ، حيث يقول تلميذه رشيد رضا في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده) " نشأ كما ينشأ أمثاله من من

⁴⁵ محمد فوز عبد المقصود : الفكر التربوي للأستاذ الامام محمد عبده و الياته في تطوير التعليم، كتاب الالكتروني، جامعة الفيوم ص 15

⁴⁶ جمال الدين الافغانى، محمد عبده، العروة الوثقى و الثورة التحريرية الكبرى، تحقيق صلاح الدين البستاني، ط3، دار العرب، القاهرة 1993، ص 17 .

*محمد رشيد رضا كاتب إسلامي وصحفي مصري ولد سنة 1865 و توفي 1935م نشأ في أسرة سورية و تتلمذ على يد محمد عبده في مصر، وأدار مدرسة للدعوة الإسلامية وأصدر المنار وكتاب في تفسير القرآن وسيرة محمد عبده، و قد تأثر فيما بعد بالوهابية ونادى بالسلفية والخلافة .انظر رؤوف سلامة موسى، موسوعة أحداث وأعلام مصر والعالم، مكتبةالمعارف، بيروت، ط1 ، ج 2، 2001، ص ص 428-429.

⁴⁷ محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده، ج1، دار الفضيلة للنشر و التوزيع، القاهرة، ط2 2006، ص "ح"

أبناء البيوت المعروفة في القرى و لم يدخل المكتب لتعلم القراءة و الكتابة الا بعد أن جاوز العاشرة من سنه" 48. ثم انتقل بعدها الى الجامع الأحمدى بطنطا ليتعلم تجويد القرآن الكريم سنة 1862م برغبة من والده ، لكنه تلقى صعوبة في الفهم نظراً لرداءة التعليم حيث يقول هو في هذا الصدد "... ثم في سنة احدى و ثمانين جلست في دروس العلم و بدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية، في المسجد الاحمدى بطنطا، و قضيت سنة و نصف لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم..." 49، و بعد أن ملّ و يئس من أساليب التعليم الرديئة ، قرر التخلي عن الدراسة ، فعاد الى القرية سنة 1865م و تزوج و كان عمره آنذاك ستة عشر سنة ، و اشتغل بالزراعة مع أبيه و اخوته ، إلا أن أباه كان يصر عليه بالعودة مرة أخرى الى سلك الدراسة ، و نتيجة للضغط الذي مارسه عليه اباه، قرر الهرب عند اخواله في قرية صغيرة ، و هناك التقى بالشيخ الصوفي درويش خضر* خال ابيه الذي كان له الأثر الكبير في تغيير مجرى حياته ، فعادت اليه الرغبة في العلم، فرجع الى الجامع الأحمدى، و منه انتقل الى الدراسة بالجامع الأزهر في القاهرة سنة 1866م 50، و تلقى مختلف العلوم، فدرس الفقه و الحديث و التفسير و اللغة و النحو و البلاغة و غير ذلك من العلوم الشرعية و اللغوية، و لم يكتف بالعلوم الشرعية فقط ، بل حاول الانفتاح على العلوم الأخرى التي لم يدرسها في الأزهر، كالرياضيات و الفلسفة. "و قد استمر محمد عبده في الدراسة بالأزهر حتى حصل على شهادة العالمية منه عام 1877م" 51.

و بعد أن اتم محمد عبده دراسته الأزهرية ، و خرج الى الحياة العامة ، و كان السيد جمال الدين الأفغانى قد وفد الى مصر، التقى به فلقنه الأفغانى الدرس الأول في الدعوة الى الإصلاح ، و الارتكان الى العقل في فهم أمور الدين 52. وقد تأثر محمد عبده بأستاذه الأفغانى تأثراً كبيراً جعله يتخلص من القيود و الجمود اللذان تلقّاهما في الأزهر، كما نادى بضرورة الإصلاح الدينى و السياسى و كانت وسيلته الكتابة و الصحف و المجلات ، و انسجم محمد عبده مع استاذه الأفغانى و نشأت بينهما صداقة قوية قائمة على الحب و الوئام و التوافق و الاحترام المتبادل و التقدير.

48 المصدر نفسه ص 20

49 المصدر نفسه ص 20

*الشيخ درويش خضر :صوفي المذهب ، له علاقة بالزاوية السنوسية ، كان له الأثر في إعادة محمد عبده للدراسة ثانية بعد انقطاعه، انظر محمد عبده، الاعمال الكاملة ج1، تحقيق و تقديم محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1993، ص 24.

50 صلاح زكى أحمد، المرجع السابق، ص 64

51 محمد محمود السروجى، دراسات في تاريخ مصر و السودان الحديث و المعاصر، الإسكندرية، 1998، ص 107

52 صلاح زكى أحمد، المرجع السابق ص 64

3- حياته العملية :

بعد أن نال محمد عبده شهادة العالمية من الأزهر، اتجه ليدرس فيه و يبدأ فصلاً جديداً في حياته تمثل في الكفاح و الدعوة الى الإصلاح و الارشاد و التنوير، و نشر العلم و المعرفة ، فقام بتدريس الفلسفة و المنطق فيه، ثم قام بتدريس التاريخ في مدرسة دار العلوم ، و أول درس ألقاه في دار العلوم كان عن مقدمة ابن خلدون، التي كان قد نشرها الطهطاوي في القاهرة في 1857م⁵³، و درّس الادب في مدرسة الألسن كما كان يلقي دروساً خاصة في منزله. و ظل محمد عبده مدرّساً حتى أقيل من من مدرستي دار العلوم و الألسن ، وتم اجباره على الإقامة في محلة النصره عالم 1879م، و ظل بها حتى عفا عنه الخديوي توفيق في 1880م.

ولم تكن حادثة طرده من كلية دار العلوم ، سوى أحد مظاهر تمرّده ، على تلك التقاليد البالية السائدة في ذلك العصر العلمي الذي أريد به تطوير التعليم في مصر، فقد رفض محمد عبده أن يعلم طلابه المواد التقليدية ، بل درّس لهم كتباً في التاريخ تمكنه من الحديث عن الثورة و الانقلاب و التغيير، فقرأ كتاب (تاريخ المدن الأوروبية) للسياسي الفرنسي الكبير (جيرو)، كما قرأ لتلاميذه مقدمة ابن خلدون، طليعة الفكر الاجتماعي الحديث⁵⁴، وبالتالي كان يحث الشباب خلال تدريسه على التضحية فداءً للأمة، و مطالبتهم بالتضحية من أجل الوطن ، وكان منهجه التعليمي يركز على التحرر من قيود التقليد و التمسك الاعمى بها، و تبني المناهج الأوروبية و الغربية في التعليم. بالإضافة الى محاربتة في المدرسة الخديوية طغيان اللغات الأجنبية ، و طالب بتركيز الاهتمام باللغة الام ، و كانت دعوته من خلال دروسه بالرغم من هدوئها فعالة و مؤثرة بدرجة أزعت السلطة القائمة ، و لم يمارس محمد عبده مهام وظيفته ، التدريسية سوى عام واحد⁵⁵، ثم أقيل و غادر القاهرة و عاد الى مسقط رأسه و بقي هناك.

بعد ان أقيل محمد عبده من وظيفة التدريس، اتجه الى مهنة الصحافة، كما حبّبه فيها أستاذه جمال الدين الأفغاني ، فقد عينه رياض باشا- رئيس الوزراء - محرّراً في جريدة (الوقائع المصرية)، و بعد أشهر تولى رئاسة تحريرها⁵⁶، و هي الجريدة الرسمية التي أسّسها محمد علي عام 1828م، فحرّر مجموعة من المقالات الإصلاحية و الأدبية، و كتب في عدة مواضيع فيما يتعلق بالفساد و الربا و الرشوة ، و حرية المرأة و تعدد الزوجات ، و هاجم في مقالاته

⁵³ ألبرت حوراني، المرجع السابق ص 164

⁵⁴ صلاح زكي أحمد، المرجع السابق ص 65

⁵⁵ عثمان أمين، دروس للشباب في سيرة الأستاذ الامام محمد عبده، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، عدد 40، نوفمبر 1964، ص 33.

⁵⁶ صلاح زكي أحمد، المرجع السابق ص 66.

التدخلات الأجنبية في البلاد و دعا أبناء الوطن الى الكفاح و الثورة... الى غير ذلك من الأوضاع و الحوادث التي يعيشها العالم العربي.

"وظل محمد عبده في هذا العمل نحو سنة و نصف، استطاع خلالها أن يجعل الوقائع منبرا للدعوة الى الإصلاح، و قد مهد له هذا الاتجاه ليكون أحد رجال الثورة العربية الافذاذ، و ان لم يكن ظهوره لم يتضح الا في المرحلة الثانية من الثورة"⁵⁷

4- رحلاته :

بعد الثورة العربية سنة 1882م، دخل الانجليز مصر، و تم القبض على محمد عبده و حكم عليه بالنفي مدة ثلاثة سنوات بعد أن أفتى بعزل توفيق باشا خديوي*، فاختر الإقامة بسوريا، الا انه لم يمكث فيها طويلا، فاتجه الي بيروت، حيث تزوج هناك من زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى ، و مكث في بيروت مدة عام قام خلالها بعدة جولات، شملت بيت المقدس، دمشق، بعلبك و طرابلس، و عنى عناية خاصة بقضية التعليم، فيها 58، ثم تلقى بعد ذلك دعوى من أستاذه جمال الدين الى باريس ، فلبى دعوته و هو يكاد يطير، فهو في بيروت يرى الشرق تحت وطأة الغزو الاستعماري، فضلا عن اشتياقه للحركة و مواصلة الكفاح بصحبة أستاذه 59. فصدر هو و أستاذه في باريس جريدة (العروة الوثقى) التي كانت تهدف الى اشعال الثورة في مصر و العالم الإسلامي بصفة عامة. فقد كان الهدف الأساسي من اصدار جريدة "العروة الوثقى" تأليب العالم الإسلامي ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر، أي ان محمد عبده و أستاذه الأفغاني قد استطاعا أن يحولا الحركة القومية من حركة مصرية بحثة الى حركة مصرية في ظل الجامعة الإسلامية ، كما عملت الجريدة على توكيد الرابطة بين المسلمين كضروة تنزل منهم منزلة التقديس 60، وكانت مقالاته و كتاباته في الجريدة تحرّض على مناهضة الاستعمار الإنجليزي و الأجنبي ، و كانت تبثُّ روح المواطنة و وحدة الامة و خلق الامل في النجاح ، و توثيق الصلات بين الشعوب الإسلامية كلها من اجل التعاون و طرد الاستعمار الأجنبي ، و التخلص من الظلم و الفساد الداخلي الذي كانت تمارسه الحكومات المحلية. كل هذا اثار حفيظة الانجليز و الفرنسيين و مخاوفهم، فقللت من اتساع نفوذ الجريدة و منعت تصديرها الى مصر و الهند و عدد من البلدان، و معاقبة كل من يطالعها و تغريمه الى ان تم توقيفها و اغلاقها.

⁵⁷ محمد محمود السروجي، المرجع السابق، ص 107

*توفيق باشا خديوي :

⁵⁸ أمينة يوسف : امام الإصلاح، ديوان الاهرام ضمن موقع :

<https://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=295813&eid=3212>

⁵⁹ صلاح زكي أحمد، المرجع السابق ص 66

⁶⁰ محمد محمود السروجي، المرجع السابق ص 108

و في سنة 1885م عاد مرة أخرى الى بيروت بعد ان أغلقت جريدة العروة الوثقى ، و بعد أن فشلت الثورة العرابية ، في نفس الوقت الذي رحل فيه استاذة جمال الدين الى فارس ، فعاد محمد عبده الى طبيعته المعتدلة الناقدة للتطور العنيف ، و كان يعتبر الثورة من ذلك التطور و بدأ حملته النقدية للثورة العرابية ، بل و منهج الثورة ذاته ⁶¹. كما بدأ بالتدريس في منزله ببيروت السيرة و التفسير و مختلف العلوم النقلية و العقلية.

كما درّس أيضا تفسير القرآن الكريم في بعض مساجد بيروت بمنج عقلي حديث، غير معتمدا في تفسيره على آراء المفسرين السابقين، حتى يقال أنّ دروسه كان يحضرها المسلم و المسيحي معا. ففي بيروت انقطع محمد عبده كليا عن النشاط السياسي و اهتم فقط بالتعليم و الإصلاح الديني و قد ساعدته الظروف هناك في ذلك.

و قد زار محمد عبده أثناء فترة نفيه لندن بعد ان تلقى دعوة من مستر بلنت*، حيث التقى هناك بعدد من القادة و السياسيين الإنجليز، ثم غادر بعدها الى تونس و مكث هناك مدة و التقى بعدد من المشايخ وكبار الفقهاء و أسس معهم جمعية هناك لكنها باءت بالفشل.

ثم أخيرا عاد الى مصر عام 1889م بعد مدة ستة سنوات قضاهها منفيا ، "فبالرغم من أن مدة نفي محمد عبده التي حكم عليه بها كانت ثلاثة سنوات ، فإنه ظل في منفاه نحو ست سنوات ، فلم يكن يستطيع العودة الى مصر بعد مشاركته في الثورة على الخديوي توفيق ، و اتهامه له بالخيانة و العمالة ⁶²، و بعد عودته الى موطنه كرّس حياته للخدمة العامة الإصلاح الديني و الاجتماعي ، و تم تعيينه قاضيا بعد ذلك من طرف الخديوي و الانجليز، و قد ابدى في مجال القضاء جتهادا في فهم قواعد القانون، و أدخل روح الإصلاح فيها ، و ركّز جهوده على اصلاح المؤسسات الدينية و خاصة الأزهر. و بعد منصب القضاء تم تعيينه مفتيا للديار المصرية

بمرسوم وقّعه الخديوي عباس حلمي الثاني، و قد كانت فتاواه تنبع من روح عقلية تنويرية عصري.

⁶¹ صلاح زكي أحمد، المرجع السابق ص 66.

*مستر ألفريد سكاون بلنت: أحد النبلاء الإنجليز و شاعر و مستشرق ، نشأ في أسرة عريقة في الغنى والجاه ، وبدأ حياته السياسية وهو لا يزال فتيا ، فعين في الثامنة عشر من عمره ملحقا بالوكالة الإنجليزية في أثينا ، ثم بقي يتنقل في المناصب بعد ذلك اثنتي عشرة سنة في الوكالات والسفارات الإنجليزية في طول أوروبا وعرضها إلى أن اعتزل خدمة الحكومة في سنة 1859 م ، زار تركيا الجزائر، مصر، سوريا ، العراق ، الهند ، اليمن ، السويس ، السعودية ،... أنظر ألفريد سكاون بلنت : التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر ، راجعه ووافق عليه الشيخ محمد عبده ، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008، ص5

⁶² الشيخ شريف، الامام محمد عبده راند الإصلاح في العصر الحديث، الثلاثاء 23 فيفري 2010، 43 : 11 ضمن موقع :

5- وفاته و مؤلفاته :

بعد الحملة الشرسة عليه و بعد الاضطهاد الذي تعرّض له محمد عبده ، احسّ بالمرض و اشتدّ عليه، فسافر الى أوروبا للعلاج، و تم تشخيصه بمرض السرطان، و ما لبث الى أن توفي يوم 11 جويلية، 1905م الموافق ل 7 جمادى الأولى 1323هـ بالإسكندرية بعد معاناته مع مرض السرطان عن عمر ناهز ستة و

خمسين سنة ، بعد حياة حافلة بالعلم و المعرفة و البلاء و الشقاء، تاركاً وراءه ارث معرفي كبير و أفكارا تنويرية ظلت حية و قد تناقلها تلاميذه الى يومنا هذا. و قد دفن بالقاهرة .

لقد ايقظ الشيخ محمد عبده الشعور الديني، و أشعر المسلمين أنهم يجب أن يهتّبوا من رقتهم لاصلاح نفوسهم و تكميل نقصهم ، و ألاّ يعتمدوا على الفخر بماضيهم بل يبنوا من جديد لحاضرهم و مستقبلهم. و دعا الى أنّ العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل ، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين و العقل معا حتى نستطيع أن نواجه المسائل في المدنية الجديدة، و نقتبس منها ما يفيدنا، لأنّ المسلمين لا يستطيعوا أن يعيشوا في عزلة، ولا بدّ أن يتسلحوا بما تسلح به غيرهم، و أكبر سلاح في الدنيا هو العلم⁶³.

هكذا ظل الأستاذ الإمام طيلة حياته يكافح من أجل نصره دينه و وطنه ، حيث وهب حياته و علمه و ماله للعلم و الدين الإسلامي و رفع راية الوطن ، فكانت حياته حافلة بالعلم و الكفاح و المثابرة ، فقد كان يقرأ و يتعلّم و يكتب المقالات ، و يلهم الثورة العربية ، و ينشر دعوة " العروة الوثقى " و يدافع عن الإسلام ، و يناقش بعقلانية من يهاجمونه ، و يشتغل بالقضاء في المحاكم ، و يحضر جلسات مجلس شورى القوانين ، و يصدر الفتاوى في الشؤون الدينية و الاجتماعية ، و نشر المقالات العلمية و الفلسفية ، و يرسل العلماء المسلمين و يصادقهم ، و ينفق من ماله على الفقراء و المحتاجين⁶⁴

و قد ترك محمد عبده وراءه عدة مؤلّفات و أهمها :

- رسالة التوحيد تأليفا و شرحا
- الإسلام و النصرانية بين العلم و المدنية
- البصائر النصيرية للطوسي تحقيقا و شرحا
- دلائل الاعجاز للجرجاني شرحا و تحقيقا
- اسرار البلاغة للجرجاني شرحا و تحقيقا

⁶³ أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 337.

⁶⁴ وليد رمضان ، الإمام محمد عبده رائد التنوير..رجل سبق عصرة، دار المجلة العربية للنشر و الترجمة ، العدد 514

، نوفمبر 2016.

- ألف كتاب في علم الاجتماع

- كتب عدد من المقالات في عدد من الجرائد كجريدة العروة الوثقى و جريدة الأهرامات

- شرح نهج البلاغة للامام علي ابن ابي طالب رضي الله عنه

- تفسير القرآن

- مذكرات محمد عبده- هذه المذكرات القيمة لم تنشر الى اليوم - و هي من أدق ما كُتِبَ عن الثورة العربية و أسبابها، و لكنها غير كاملة لأنّ الخطية الموجودة تتكون من 144 صفحة، و يقف ذكر الحوادث عند وزار الشؤون ، و قد كتبت هذه المذكرات بناء على طلب الخديوي عباس ، و من أهم أقسام هذه المذكرات القسم الذي شرح فيه محمد عبده أسباب الثورة البعيدة في عصر إسماعيل⁶⁵.

المبحث الثاني : معالم الفكر الإصلاحى عند محمد عبده

يعتبر محمد عبده و أستاذه جمال الدين الافغانى من أوائل من ادخلوا فكرة الإصلاح الى دول العالم العربى و الإسلامى ، و قد اختلف كلاهما في الوسيلة التي عن طريقها تتحقق النهضة و التقدم، إلا أنّ هدفهما كان واحد.

فقد كان الإصلاح عند محمد عبده يركز على الجانب التربوي و التعليمي و الديني و السياسى و الاجتماعى، و الثقافى، نظراً لما أصاب تلك الجوانب من عطب جعلت الامة العربية و الإسلامية تتخلف و تبقى أسفل الأمم، و قد كان كلُّ همّه تغيير المنظومة الاجتماعية و الفردية الى الأفضل ، و الارتقاء بالشعب المصرى و الشعوب العربية و الإسلامية بصفة عامة، الى مستوى النضج و التطور و اللحاق بركب الحضارة.

و قد اعتمد في إصلاحه على المنهج الوسطى (الوسطية) كما يقول هو و اعتبرها منهاج الإسلام الصحيح في صياغة الانسان المسلم ، و سبيل الإصلاح في المجتمعات العربية الإسلامية ، و بوجودها تتقدم الامة العربية و في غيابها تنهار و تتحطم⁶⁶، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾⁶⁷. و نلاحظ أنه بمنهجه هذا يخالف السلفيين و الوهابيين المتشددىن الذين يقَدِّسون النص ، و العلمانيين الليبراليين الذين يقَدِّسون العقل، و يرى بأن الدين يكون في منزلة وسطى بين العقل و النقل. و هذا ما قاله ابن رشد و فلاسفة الإسلام من قبل ، حيث يقول الأستاذ الإمام في كتابه (رسالة في التوحيد) : " انّ الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد، العقل من أشدّ أعوانه، و النقل،

⁶⁵ محمد صبرى، تاريخ مصر الحديث من محمد علي الي اليوم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1926، ص9.

⁶⁶ محمد عمارة، المنهج الإصلاحى عند محمد عبده، مكتبة الإسكندرية، 2005، ص 47.

⁶⁷ سورة البقرة، الآية 143.

من أقوى أركانه، و ما وراء ذلك فنزعات الشياطين، و شهوات السلاطين، و القرآن شاهد على كل بعمله... "68. و بالتالي مزج محمد عبده بين العقل و النقل و وَّفَقَ بينهما ورأى بأنّه لا تعارض بينهما، و أنّ الدين الإسلامي لم يحارب العقل و البحث و التفلسف، بل العكس ، فقد حثنا الله في كتابه على البحث و النظر و اعمال عقولنا و اجتناب التقليد و أخذ ما هو حاضر دون بحثٍ و لا تمحيص ، فنجده يقول في هذا الصدد : " فقد أمر (أي القرآن الكريم) بالنظر و استعمال العقل، فيما بين أيدينا من ظواهر الكون و ما يمكن النفوذ اليه من دقائقه ، تحصيلا لليقين لما هدانا اليه ، و نهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الاخذ بما عليه آبائهم، و تبشيع ما كانوا عليه من ذلك ، و استتباعهم لهدم معتقداتهم ، و امحاء وجودهم المِللى ، و حق ما قال، فان التقليد كما يكون في

الحق يأتي في الباطل ، و كما يكون في النافع يأتي في الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ، و لا تجمل محال الانسان"69.

اذن فاللدين و العلم مكانة بارزة في فكر محمد عبده، و لا يجوز الفصل بينهما و بهما تنهض الأمم و الحضارات و ترتقي الى أعلى المستويات. و يرى بأنه اذا ما حدث و تعارض العقل و النقل، و جب ان نقدم العقل على ظاهر الشرع، حسب قوله : " اتَّفَقَ أهل الملة الإسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه إنه إذا تعارض العقل و النقل أخذ بما دلّ عليه العقل ، و بقي في النقل طريقتان : طريق التسليم بصحة المنقول مع اعتراف بالعجز في فهمه ، و تفويض الأمر الى الله في علمه ، و طريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل" 70. فإذا ما تعارض العقل و الشرع و جب أن نسلم بصحة ما جاء في الشرع و تفويض أمره الى الله ، ثم تأويل ما جاء في الشرع حتى يتوافق مع العقل ، و هذا ما جاء به ابن رشد في كتابه (فصل المقال في تقرير ما بين الحكمة و الشريعة من اتصال).

و قد اعتمد محمد عبده في تفسيره للقرآن الكريم على المنهج العقلي كما فعل أستاذه الافغاني ، و كان يأول الايات بما يتوافق و روح العصر لأنّ القرآن الكريم صالح لكل زمان و مكان. هكذا كان منهج محمد عبده الإصلاحى منهجا عقليا ذات صبغة دينية فلسفية.

1- الإصلاح التربوي و التعليمي :

لقد رأى محمد عبده بأنّ أولى خطوات النهضة و الإصلاح تكون في اصلاح التربية و التعليم ، حيث اعتبر أنّ الانسان لا يكون انسانا حقيقيا الا بالتربية ، فإذا تربى أحب نفسه لاجل أن يحب

68 محمد عبده، رسالة في التوحيد، تحقيق عاطف العراقي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص 24.

69 المصدر السابق ص 24

70 محمد عبده الإسلام بين العلم و المدنية، عرض و تحقيق الطناجي، دار الهلال، القاهرة، 1960، ص 119 .

غيره ، و أحب غيره لأجل أن يحب نفسه ⁷¹، فقد اهتم محمد عبده كثيرا بالتربية حيث نجده كتب العديد من المقالات في هذا الصدد و ترجم كتب التربية الأجنبية مثل كتاب سبنسر (التربية) عن الفرنسية، كما دعا الجرائد الى الانشغال بتربية العقول، و الأفكار تربية أساسية تراعي السنن الإلهية بعدم طلب الغايات الا بعد اعداد السبل و استكمال البدايات ، و أن لا تردد أو هاما ⁷². و لم ينظر عبده الى التربية و التعليم بتلك النظرة السطحية أو التقليدية الضيقة التي

تقتصر على التلقين و شحن الأطفال بالمعلومات و الاجبار و العنف ، و انما من منظور ان لها قيمة كبيرة في المجتمع و النهوض به و تطويره، حتى أننا نجده يقول في هذا الصدد : " من يريد خير البلاد فلا يسعى الا في اتقان التربية، و بعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه بدون اتعاب فكر و لا اجهاد النفس " ⁷³.

و قد أوكل محمد عبده مهمة التربية الى الأغنياء و ذوي النفوذ و رأى فيهم أصحاب المصلحة الحقيقية في النهوض بالبلاد و العباد و علّق عليهم آماله في تحقيقها، وان دورهم أكبر من دور الحكومة (مثل رجال الاعمال اليوم الذين يتحكمون و يسيطرون على زمام السلطة) ، حيث قال : " على الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم ، و تطاول الايدي الظالمة اليهم ، أكثر من الفقراء ، أن يتألفوا و يتحدوا، و يبتذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس و المكاتب ، و اتساع دوائر التعليم ، حتى تعمّ التربية ، و تثبت في البلاد جراثيم العقل و الادراك، و تنمو روح الحق و الإصلاح، و تنهذب النفوس... " ⁷⁴.

و بالتالي فقد كانت نظرتة الى التربية نظرة مثالية لا واقعية ، و خير دليل على ذلك أنه شدّد على أن يكون العمل التربوي بديلا عن العمل السياسي ، حتى أنه انتقد استاذة جمال الدين الافغاني و رأى بأنه لو اهتم بالتعليم و التربية أكثر من اهتمامه بالجانب السياسي لافاد الإسلام و الامة الإسلامية بالكثير.

إنّ التربية التي كان يدعو اليها محمد عبده تربية تستند الى الدين و القيم الدينية ، و ذلك لأنّ الرجل كان صاحب رأي يرى أنّ أي اصلاح للشرق و الشرقيين لابدّ و أن يستند الى الدين حتى يكون سهل القبول شديد الرسوخ عميق الجذور في نفوس الناس... ⁷⁵. ربما لأنّ الرجل كان يرى بأن الشرق اكثر قبولاً و تمسكا بالدين اكثر من الغرب الذي انسلخ من القيم الدينية.

⁷¹ محمد عبده، الاعمال الكاملة ، المصدر السابق ص 156.

⁷² السيد عمر ، التنشئة السياسية لدى مدرسة المنار (مقارنة أولية)، ملتقى دولي حول مدرسة المنار و دورها في الإصلاح الإسلامي الحديث، القاهرة، فندق فلانكو، 8 و 9 أكتوبر 2002م، ص 261.

⁷³ محمد عبده ، الاعمال الكاملة المصدر نفسه ص 37

⁷⁴ محمد عبده، الاعمال الكاملة ، المصدر السابق ص 157.

⁷⁵ المصدر نفسه ص 160

و كما اهتم محمد عبده بالتربية و إصلاحها، اهتم أيضا بالتعليم نظرا لأنّ الشعوب و الأمم التي تطوّرت ، تطورت بفضل العلم ، والحضارة الإسلامية بلغت أوج ذورتها و نموها عندما اهتمت بالعلم و التعليم، و انفتحت على العلوم الأخرى، ثم انهارت عندما حاربت العلم و اقتصرت فقط على العلوم الشرعية.

و نجد أن محمد عبده قسّم الناس في التعليم الى ثلاثة طبقات :

الطبقة الاولى : و هم التجار و أهل الزراعة و الصناعة

الطبقة الثانية : و هم أصحاب السياسة و الحكومة و الضباط و العسكر و من يتبعهم، أي ممن يتعاطون عمل الدولة.

الطبقة الثالثة : طبقة العلماء من أهل الارشاد و التربية.⁷⁶

و قد كان تقسيمه هذا نابعا من رؤيته أن الناس مختلفون في القدرات العقلية و البدنية ، و الظروف الاجتماعية و الاسرية. و يرى بأنه لا يمكن لأي طبقة ان تحل محل الأخرى الا نادرا او كما يسميهم محمد عبده في هذه الحالة "الشواذ" و الحالات الفردية "الأحاد" من النوابع، حيث يقول " و لا نريد بهذا التقسيم منع الأحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم...".⁷⁷، فطبيعي أنّ ابن الغني له من الإمكانيات ما يرتقي به الى المدارس العليا، اما ابن الفقير فليس امامه الا الاستفادة بخدمة الأغنياء و مساعدتهم في أعمالهم بالصدق و الأمانة فقط لا غير ، اللهم الأ نوابع الذين ترتفع بهم عبقرياتهم عن مستوى الخدم للأغنياء ، فهذا هو جوهر طبقة التعليم عند الأستاذ الامام.⁷⁸ و هذا التقسيم الطبقي نجده عند أفلاطون حينما قسّم الناس الى طبقات حسب قدراتهم العقلية و الذهنية : الطبقة الذهبية (الحكام)، الطبقة الفضية (الحراس)، و الطبقة البرونزية (عامة الناس من العمال و التجار و الحرفيين...)، و اتفق محمد عبده مع أفلاطون بتركيزه على الطبقة الأولى حيث أوكل كلاهما المسؤولية لطبقة الحكام في العناية بالتربية و التعليم و اصلاح المجتمع.

لقد ركّز محمد عبده في اصلاحه التربوي و التعليمي كثيرا على نظام التعليم في الازهر باعتباره المرجعية الدينية الحافظة لدين الله ، و المدرسة التي يتخرج منها الفقهاء و الأئمة الذين يرجع اليهم عامة الناس في الاستفسار في الأمور الدينية و الفتاوى و غير ذلك ، فقد كان لمحمد عبده موقفا نقديا من الازهر منذ ان كان يدرّس فيه حيث يقول : "...انّ نفسي توجّهت الى اصلاح الازهر منذ كنت مجاورا فيه، بعد التلقي عن السيد جمال الدين ، و قد شرعت في ذلك فحيل بيني و بينه ، ثم كنت أترقّب الفرص ، فما سنحت الا و اسشرفت لها و أقبلت عليها ، حتى اذا ما

⁷⁶ محمد عمارة، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1988، ص228

⁷⁷ المرجع نفسه ص 229

⁷⁸ محمد عبده، الاعمال الكاملة ، المصدر السابق ص 166

صادفت الموانع ، لويت و صبرت مترقبا فرصة أخرى" 79. وقد انتقد الأستاذ الامام الأزهر في عدة نقاط أهمها :

- لا نظام لها في الدروس، فلا يبالي الأستاذ بتلميذه سواء حضر الدرس أم لم يحضر، فهم أم لم يفهم، صلحت اخلاقه أم فسدت، و لا ينصح الأستاذ تلاميذه بنصيحة تعود عليهم بالنفع في دينهم و دنياهم، انما تكمن شطارته في النقد اللاذع و في مهاجمة كل من يخالفه في الرأي و في المسائل الفقهية.
- نظام تعليمي تقليدي ركيزي يقتصر على علوم فقهية سطحية أكل عليها الظهر و شرب، و معاداة العلوم الحديثة ، و غموض الكتب الدراسية ، فلا يتعلم التلاميذ من الدين الا بعض المسائل الفقهية و طرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته، أكثر مما يقرب منها 80.
- لم تكن السنة الدراسية في الازهر تزيد عن أربعة أشهر.
- لا يوجد ضابط لتوزيع المرتبات و الشهادات.

و نتيجة لكل هاته الأوضاع المزرية التي يعيشها الازهر، وضع محمد عبده مجموعة من الإصلاحات ، و الإصلاح الذي كان ينشده محمد عبده ينقسم الى قسمين : صوري و معنوي، فأما الصوري فهو النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم و الحياة البدنية و الاجتماعية و توسيع دائرة المعارف و العلوم ، و ترقية اللغة العربية ، و أما المعنوي فهو اصلاح العقل بالاستقلال في العلم و الفهم و صحة القصد فيه بما يفرضي الى ارتقاء الامة في دينها و دنياها، و اصلاح الاخلاق بالصدق و الإخلاص و عزة النفس و السخا و الوفاء... الخ 81، فقد شمل هذا الإصلاح جميع الميادين في الازهر سواء نظام التعليم و البرامج التعليمية ، و المكتبات و الإدارة...، و يمكن أن نضع أهم نقاط اصلاحاته فيما يلي :

- إضافة مواد علمية حديثة الى البرامج التعليمية كالهندسة و الجبر و الفلسفة و المنطق... و الغاء بعض المواد
- التدرج في التدريس من الأسفل الى الأعلى ، بدءاً بالمواد السهلة البسيطة ثم الارتقاء الى المواد المعقدة كالهندسة و الحساب... الخ
- الحضور الاجباري للطلبة.
- مُسائلة الأستاذ لتلامذته عن مدى استعابهم للدروس.
- جعل مدة دراسة الفقه و التفسير أطول من مدة دراسة النحو و البلاغة و التاريخ و علم الاخلاق.
- رفع الأيام الدراسية من أربعة أشهر الى ثمانية أشهر.

79 المصدر نفسه ج3، ص 193

80 المصدر نفسه ص 116

81 محمد رشيد رضا، المصدر السابق ص 567

- رفع أجور المدّسين في الأزهر.
- العناية بالشؤون الصحية للطلبة و توفير طبيب و صيدلية ، و معالجة الطلبة مجاناً.
- اصلاح مكتبة الأزهر و بعض المكاتب الفرعية التابعة لها.
- تعديل نظام الامتحانات، و جعل الامتحانات النهائية في متناول الجميع، و الكل له الحق في المشاركة و الحصول على شهادة.

فهذه هي مجمل لأهم الإصلاحات التي وضعها محمد عبده للأزهر و قد أعطت هذه النتائج ثمارها في البداية لولا الحاكم الخديوي و لولا تحالف السلطة السياسية مع الأزهر كما يقول تلميذ الشيخ عبده رشيد رضا : "فسار بالأزهر بالتدرج على هذه الطريقة بغاية الهدوء و السكينة ، و بدأت تظهر ثمارها ، و توجّهت نفوس بعض الطلاب الى التماس علوم أخرى، و لكن سمو الخديوي تغيير في أوائل السير على الشيخ محمد عبده الذي يديره بيده المكان بالاتفاق مع شيخ الأزهر الذي عين باقتراحه..."⁸².

و كما اهتم محمد عبده بإصلاح الأزهر، اهتم أيضاً بإصلاح "دار العلوم"، و هي مدرسة أسّسها محمد علي باشا، و اشتراط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر، و أن يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس ، ثم جعل في تلك المدرسة دروساً لجميع ما كانوا يقرّونه في الأزهر من العلوم الدينية⁸³، مضيفاً إليها علوم أخرى كالطبيعة و الكيمياء و الهندسة و الحساب و التاريخ و الجغرافيا و غير ذلك. و كان المتخرجون من هذه المدرسة أساتذة في اللغة العربية و الشريعة الإسلامية ، و لكن مرت على تلك المدرسة عدّة أدوار جعلتها تخرج عن الطريق و المسار الذي بُنيت عليه ، و لهذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليه تلامذة غيرها من الأفكار و الاخلاق ، و ان كان قد أخرجت هذه المدرسة أناساً يشهد لهم بالعلم و المعرفة مقارنة بمدارس أخرى و ليس كما كان يُنتظر.⁸⁴ و على اثر هذا رأى محمد عبده ان هناك مجموعة من العراقيل حالت دون تطور هذه المدرسة يجب إصلاحها، و يمكن حصر أهم نقاط اصلاحاته كالآتي :

- اصلاح البروجرام* و حذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلاميذ في الأزهر، و إضافة بعض العلوم الدينية و اللغوية.
- تغيير طريقة تفسير القرآن و تعلّم الاحاديث.
- اختيار معلّمين صالحين لقهم القدرة و الكفاءة في التعليم.

⁸² المصدر نفسه ص 544

⁸³ محمد عبده، الأعمال الكاملة ج3، المصدر السابق ص 122

⁸⁴ المصدر السابق ص 122.

*البروجرام : و يقصد به البرنامج للدروس المقررة.

- تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه و غمر فكره الميل الى المقصد الذي وضعت له المدرسة ، عالماً بالدين و لغته ، موثقاً به عند العامة.
- توسيعها الى ما يسع مئة تلميذ، و إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الازهر.
- أن يكون للموظف في هذه المدرسة سلطة تامة على تهذيب التلاميذ و تربية نفوسهم و تقوية أخلاقهم ، و طبائعهم و أرقامهم.
- أن تكون درجة التلاميذ في الوظائف على حسب أدبهم و أخلاقهم ، بغرض نشر التربية في المدارس.
- أن يزيد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعلّم في نفس المدرسة⁸⁵.

فهذه هي أهم الإصلاحات التي جاء بها محمد عبده في مجال التربية و التعليم ، مزج فيها بين روح الاصلاح و المعاصرة و مختلف العلوم الدينية و الدنيوية ، و حارب الفكر التربوي التعليمي الذي يعتمد على التقليد و الوراثة ، و ابتكر منهجاً جديداً يتفق مع روح العصر. الا انه مع الأسف لم يلقى هذا الإصلاح الترحيب من طرف الفقهاء و شيوخ الدين و السلطات السياسية القائمة، فطالما حاربوا الشيخ محمد عبده و اتهموه بالعمالة و كفروه كما فعلوا مع كل مفكر تنويري، و هذه هي عادة الشيوخ الدوغمائيين الذين يكفرون كل من يأتي بأفكارٍ تنويرية جديدة.

و اذا ما لاحظنا مؤسسة الازهر في وقتنا الحاضر نجدها لازالت تعتمد على المناهج القديمة و التقليد و العلوم الفقهية الكلاسيكية التي أكل عليها الدهر و شرب ، فلا هناك ابداع و لا ابتكار و لا تجديد، فقط مجرد ترديد و حفظ ما قاله الأئمة الاولون ، و كأنّ هؤلاء الأئمة معصومون لا يخطئون و لا يتعثرون و كأنّ كل ما قالوه و كتبوه هو المطلق!، فممنوع اذا ما خالفنا أقوالهم و أفكارهم و انتقدناها و جننا بأفكارٍ جديدة تتطابق مع العصر، فكيف لامة - تعتمد على مناهج و نظام ابتكر منذ قرون طويلة - كيف لها أن تتقدم و تتطور! . رغم أننا نرى بأم اعيننا ان الغرب تطور بفضل العلم و تجديده للمعرفة و النظريات العلمية السابقة، لكن العرب و المسلمين لا زالوا يمشون في نفس الطريق الذي مشى فيه آبائهم الاولين رغم معرفتهم بأنه طريق مسدود ، فاذا ما أردنا ان نحدث نهضة علينا أن نسلك طريقاً آخر غير الذي سلكه من كانوا قبلنا.

2- الإصلاح الديني :

لقد انطوى تفكير محمد عبده على توتر دائم بين متطلبات القيم الإسلامية ، و حركة المدنية الحديثة ، فأعمل فكره كي يبرهن أنّ هذين المطلبين غير متناقضين، و افترض أن هناك اسلاماً حقيقياً لا تنال منه حوادث الزمان ، و اسلاماً أصابه الانحراف يمارسه المسلمون فعلاً اليوم⁸⁶ ، حيث أصبح المسلمون يؤمنون بخرافات و أساطير لا يتقبلها لا العقل و المنطق، و يظنون أنها

⁸⁵ محمد عبده المصدر نفسه ص 124.

من ثوابت الدين و أصبحوا يمارسون طقوس و شعائر و عادات و تقاليد سيئة لا صلة لها بالدين فتجمدت عقولهم و أصابها العطب و نزلوا الى الحضيض. من هنا جاءت فكرته و دعوته الى

الإصلاح الديني ، اصلاح الشوائب التي أصابت الإسلام و المسلمين ، و إعادة للإسلام و جهه الحقيقي الذي يتوافق مع العقل ، كما قال هو حينما حدّد هدفه من الإصلاح الديني : " تحرير الفكر من قيد التقليد ، و فهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، و الرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الأولى ، و اعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، و تقلل من خلطه و خبطه ، لنتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، و أنه على هذا الوجه يعدّ صديقا للعلم ، باعثا على البحث في أسرار الكون ، داعيا الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس و إصلاح العمل..."⁸⁷. و قد خالف محمد عبده في إصلاحه هذا تيارين كانا سائدين في عصره، التيار التقليدي السلفي و الوهابي - الذين أضفوا قداسة الدين على فكر العصور المظلمة ، فمنعوا التفكير و الاجتهاد و حاربوا الحضارة بكل اشكالها - و تيار التغريب العلماني الذين اندهشوا و انبهروا بمظاهر الحضارة الغربية و حاولوا تقليدها في كل شيء. و لهذا رأى بأن اصلاح الدين لا يكون الا بالرجوع الى عهد السلف أي عهد الرسول و قبل ظهور الفرق الإسلامية و انقسام المسلمين، ذلك هو العصر الذهبي للإسلام كما يرى هو و الكثير من المفكرين، و حتى سيدنا محمد يقول في حديثه : " خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"⁸⁸، فيرى الأستاذ الإمام أنّ العودة الى تخلف العصور المظلمة ، أو التبعية لحضارة ليست بحضارتنا، لا يُفيد الأمة في شيء و لا يُصلح أحوالها، و انما يزيد من تخبُّطها. و هذا ما أكدّه في قوله : " إنّ الفكر أنما يكون فكراً له وجود صحيح اذا كان مطلقاً مستقلاً، يجري في مجراه الذي وضعه الله عليه الى ان يصل الى غايته ، و أمّا الفكر المقيدّ بالعادات ، المُستعبد بالتقليد، فهو المرذول الذي لا شأن له، و كأنه لا وجود له."⁸⁹

لقد وضع محمد عبده مجموعة من النقاط تشكّل في جوهرها إصلاحه الديني و اعتبرها المنطلق الأساسي لعملية الإصلاح الديني اذا ما تم تطبيقها و العمل بها ، و يمكن أن نلخص هذه النقاط كالآتي :

- النظر العقلي لتحصيل الايمان، فالدين يُفهم بالعقل و النظر و التأمل.
- تقديم العقل على ظاهر الشرع اذا حدث تعارض بينهما و تأويل النص الديني حتى يتوافق مع العقل.

⁸⁶ شمس الدين الكيلاني، الإصلاح الديني : محمد عبده نموذجا، 29 مارس 2008، 00: 00، ضمن موقع :

www.alhayat.com/article/1376327

⁸⁷ محمد رشيد رضا، المصدر السابق ص 11

⁸⁸ حديث نبوي شريف، رواه البخاري و مسلم

⁸⁹ محمد عمارة، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق ص 52

- الاعتبار بسنن الله في خلقه.
- حماية الدعوة لمنع الفتنة.
- قلب السلطة الدينية 90

لقد شرع محمد عبده في تطبيقه لهذه النقاط و في إصلاحه الديني مبتدئاً أولاً بالمؤسسات الدينية كالازهر، حيث عمد الى تغيير المنظومة التربوية و التعليمية في الازهر بإدخال مجموعة من المناهج و القوانين عليه كما سبق و ذكرنا. كما انتقد أيضاً المدارس الدينية كالمدرسة الوهابية و السلفية و غيرها، أو كما يسميهم ب "المجددون النصوصيون"، حيث يرى أنّ تجديدهم لم يكن كافياً و لا نافعاً، فهم عادوا الى نصوص الإسلام الأولى و وقفوا عند ظاهر النص فقط، ملتزمين بالمذهب السلفي النصوصي – مذهب أهل الحديث و أتباع الامام أحمد ابن حنبل المناهض للتأويل و الرفض لإعمال العقل في علوم الدين و الشرع⁹¹، فهؤلاء و أمثالهم قد استخدموا النصوص الإسلامية لإثبات البدع و الخرافات و العقائد الزائفة الموجودة في الإسلام، حسب قوله: "...و لكن هذه الفئة اضيق عطناً، و أخرج صدرًا من المقلّدين، و هي ان أنكرت الكثير من البدع، و نحت عن الدين كثيراً مما أضيف اليه، و ليس منه، فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد، و التقيد به، بدون التفات الى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين و اليها كانت الدعوة و لأجلها مُنحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أعباء..."⁹².

و شمل انتقاده و إصلاحه ما سمّاه ب "أدعياء السلطة الدينية" و هم الفقهاء أو ما يُطلق عليه ب "فقهاء السلاطين" الذين تَهَمَّهم المصلحة فقط و يخدمون الحاكم و حاشيته و يصدرون فتاوى حسب ما يخدم مصلحة الحاكم و مصلحتهم، كما نجدهم يتوسطون بين الانسان و خالقه ظانين منهم بأنهم مُفَوَّضون من عند الله، حيث يرجع اليهم عامة الناس في الفتوى و الارشاد في الحياة اليومية، بل من الناس السذج من يبيع لهم عقله، فيصير يمشي كما يوجهونه و يرشدونه، و هذا لغياب الوعي، و لهذا السبب كثر في وقتنا المعاصر الإرهاب و التطرف الإسلامي، فالارهابي ما هو الى شخص قد باع نفسه و عقله لأمثال هؤلاء الشيوخ الذين جعلوه يحلم بجنة في السماء و حورية في انتظاره و وعدوه بخمر لذة للشاربين، مقابل ان يُسلم نفسه و يقتل أعداء هؤلاء الشيوخ و السلاطين.

و هذا بحد ذاته مذلة و إهانة كما قال محمد عبده: " فالإيمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع، و الاستعباد للرؤساء، الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية، و هي دعوى القداسة، و الوساطة

⁹⁰ أحمد البرقاوي، المرجع السابق ص 70

⁹¹ محمد عمارة، الإمام محمد عبده مجدّ الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق ص 58

⁹² المرجع نفسه ص 59.

عند الله ، و دعوى التشريع و القول على الله بدون اذن الله ، أو السلطة الدنيوية ، و هي سلطة الملك و الاستبداد ، فإن العبودية لغير الله تهبط بالبشر الى دركة الحيوان المسخر أو الزرع المستنبت... و حقّ على الانسان ان لا يرضى لنفسه أن يكون عبداً ذليلاً لبشر مثله للقب ديني أو دنيوي، وقد أعزه الله بالايمان... " 93 .

و لم يكن هؤلاء الشيوخ أو الفقهاء فقط من شنّ عليهم محمد عبده الحرب، بل حارب أيضا الصوفية الذين اقتسموا عقول الأحياء و أموالهم باسم الأموات ، و ما أقيم على مقابرهم، من قباب و ما يتلى فيها من أذكار و أوراد 94 . حيث حدّر منهم بل و دعى الى قطع أيديهم كي لا تمتدّ الى أموال الناس في قوله : " ...فإذا رأيته لا يمد يده للأخذ فامدد اليه يدك ، و عاهده على الاسترشاد بعلمه و عرفانه ، و اذا كان يمد يده للأخذ منك فلا تمدد يدك الى يده الا بالسّكين، فأنّه لصّ قد اتخذ الدّين حرفة... " 95 ، فهوؤلاء الناس اتخذوا الأموات وسطاء بينهم و بين الله يدعونهم و يستخيرونهم ، و يستمدون منهم العون و البركات ، و لذلك اعتبر الاستغاثة بالقبور و الأولياء الصالحين ضربا من الشّرك ، و عزا تعظيم الاولياء و تقديسهم عند المسلمين الى الأقوام التي غزت البلاد الإسلامية ، فهو يقول : " انظروا الى ما كانوا عليه من فخخة الوثنية ، و في عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه. و لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره و تفخيم أوامره... و الغوغاء عون الغاشم و هو يد الظالم. فخلقوا لنا هذه الاحتفالات و تلك الجماعات... " 96 فهذا كله يدخل في الشّرك الأكبر، يرفضه الإسلام رفضاً قاطعاً، فالعبادة و الدعاء لا يكون الا لله وحده دون واسطة أو تدخل من أحد، فقط بين العبد و ربّه.

وقد واصل محمد عبده كذلك في نقده و في حملته الشرسة على ما سماهم ب " أنصار التغريب" و يقصد بهم دعاة العلمانية و الليبرالية ، و هم النقيض للتيار السلفي و الوهابي المتجمد ، فهوؤلاء يرون في العقل كفراً و المنطق زندقة و في الحضارة الحديثة نقيضا للايمان بالدين ، و انصار التغريب يقفون موقفا عكسياً و يرون في النقل تخلفاً و في التراث قيوداً تمنع الامة من التقدم 97 . فوقف موقفا وسطيا يبني من الحضارة على أسس من الدّين و التراث ، فلا يجب أن نهمل الدين و التراث كله ، و لا نهمل قيم الحضارة كلها، بل نأخذ شيئاً من هذا و شيئاً من هذا و نبني به حضارتنا.

93 محمد عبده، الأعمال الكاملة ج4، المصدر السابق ص 430

94 محمد عمارة، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين ، المرجع السابق، ص 61

95 محمد عبده، المصدر نفسه ج3 ص 529

96 علي المحافظ، المرجع السابق ص 83

97 محمد عمارة، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدّين، المرجع السابق ص 64.

لقد أعطى محمد عبده أهمية كبيرة للعقل في إصلاحه الديني مُعترفاً بقدراته و مكانته في الصول الى حقائق الأشياء ، و ذلك بعد الأهمية التي أعطاها للدين و جعل منه المرتكز الأساسي و الأول في الإصلاح التربوي و التعليمي كما سبق و ذكرنا.

و بالنسبة لمقام و أهمية العقل في الإصلاح الديني يمكن أن نوجزها في عدد من النقاط :

أ- إعلاؤه شأن العقل في تفسير القرآن ، و هو كتاب الدين الأول و الأساسي ، و رأيته في وجوب أن يطرح الذين يريدون تفسير القرآن تفسيراً حديثاً مستنيراً، أن يطرحوا جانباً (رؤية) السابقين من المفسرين ، و أن يتزودوا فقط بالأسلحة و الأدوات اللغوية ، و شئى من أسباب النزول ، و معلومات السيرة النبوية و معارف التاريخ الإنساني عن حياة الكون و الشعوب التي يعرض لها القرآن الكريم " 98، فهو يرفض أن يعتمد المفسر على التفاسير السابقة ، و حتى أن يعتمد العامة من الناس في اطلاعهم و بحثهم على تلك التفاسير، لأنها تفاسير قد فسرها أشخاص قد عاشوا في زمان غير زماننا و ظروف غير ظروفنا، مستوى العلم و المعرفة في زمانهم ليس هو نفسه اليوم، فمعظم المفسرين قد عاشوا في فترة العصور الوسطى التي كان فيها العلم و المعرفة محدود جداً مقارنة بالعلم في العصر الحديث الذي هو عصر الاكتشافات العلمية ، بالإضافة الى اختلاف مستوى البيئة و الثقافة ، فعندما ارجع الى تفسير ابن كثير مثلاً أو الطبري، فهذا الشخص قد عاش في بيئة و في عصر يختلف كلياً عن عصرنا اليوم، و لذلك و جب أن تكون هناك تفسيرات حديثة تتماشى مع العصر و البيئة و الثقافة و مستوى العلم و المعرفة ، و الأ لماذا يُقال (القرآن صالح لكل زمان و مكان) !. و يرى عبده أن هناك حالة واحدة فقط يرجع فيها المفسر فقط الى التفاسير القديمة و هي عند إيجاد صعوبة و لفهم المفردات فقط فيدعم ذلك باطلاع على السيرة النبوية و الاحاديث متفكراً على الصحيح منها دون الضعيف.

ب- اعلاؤه شأن العقل في تفسير القرآن، كقوة من قوى الانسان عند مقارنته بالقوى الأخرى التي يتمتع بها هذا الانسان، و الأستاذ الامام يقف في هذا الأمر قريباً جداً من موقف الفلاسفة الالهيين، و منهم المعتزلة⁹⁹، فهو يتفق معم في فكرة أن كل النتائج التي يتوصل اليها العقل هي سبلا و طرقاً الى معرفة الله تعالى ، فنجده يقول في هذا الصدد : " انّ العقل من أجلّ القوى، بل هو قوى الإنسانية و عمادها، و الكون جميعاً هو صحيفته ، التي ينظر فيها و كتابه الذي يتلوه، و كل ما يقرأ فيه هو هداية الى الله و سبيل للوصول اليه" ¹⁰⁰، فليس هناك أمور محظورة على العقل و ممنوع أن يبحث فيها كما يرى الأشاعرة و السلفيين و الوهابيين و غيرهم من أهل النقل ، بل على العكس قد خلق الله هذا العقل للبحث

⁹⁸ عبد الرحمن بدوي، الامام محمد عبده و القضايا الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص 55

⁹⁹ المرجع نفسه ص 55

¹⁰⁰ محمد عبده، الاعمال الكاملة ج1، المصدر السابق ص 185

و النظر و اعماله في كل صغيرة و كبيرة ، فالانسان الذي يؤمن بالله ايمانا عقلانيا - بعد أن فكّر و نظر و استنتج بأنّ الله موجود يقيناً و اثباتاً- ليس كمن يعبد الله فقط عن طريق الوراثة فقط لأنه وجد آباءه و اجداده يعبدون الله ، فالاول يعرف الله حق المعرفة و يؤمنه به ايمانا يقينيا، اما الثاني فإيمانه سطحياً.

اذن فقط أعطى محمد عبده الأولوية المطلقة للعقل في عملية الإصلاح الديني و في تفسيره للقرآن الكريم، و رأى بأنه الملكة التي يتوصل بها الانسان الى خالقه و كشف اسرار و غموض هذا العالم ، ويمكن أن نقول عن الأستاذ الامام أنه كان صاحب "سلفية عقلية" تميّز بها عن مواقف " السلفيين " الذين اکتفوا بالموقف "السلفي النصوصي" و عن " العقلانيين " الذين انطلقوا من منطلق العقل فقط ¹⁰¹، فالسلفيين النصوصيين قد قدموا النص و أهملوا جانب العقل ، و العقلانيين قد قدموا جانب العقل و أهملوا النص، أما محمد عبده وقف موقف المحايد، بعد ان دعا الى العودة بالإسلام الى ينابيعه الأولى كما فعل السلفيون، لكن من منظور عقلي بحث ، و أن نرفض بعد ذلك كل ما يتعارض مع معطيات العقل العصري المستنير بعد النظر و البحث فيما هو جوهرى و نقي من عقائد الإسلام كما جاء بها القرآن الكريم.

ان عملية الإصلاح الديني عند محمد عبده لا تتم فقط بالعقل و بالتوفيق بينه و بين النص ، بل هناك نقطة أخرى يجب إصلاحها و هي اصلاح اللغة و اساليبها. ان اللغة وسيلة جدّ مهمة في التطور و النهضة بمجتمع ما، اذا صلحت في مجتمع ما صلح هو كذلك و اذا فسدت فسد و تخلف ، فلغة المجتمع هي هويته و ثقافته و تاريخه ، ولعل تطور المجتمعات الأوروبية و الغربية كان ورائه تطور اللغة نتيجة الإصلاحات التي جاء بها فلاسفة و علماء اللغة أمثال فرديناد دي سوسير و فريجه و نيتشه و غيرهم.

هذا ما أراد أن يطبقه الأستاذ الامام بعد أن رأى الجمود الذي أصاب المجتمع الإسلامي على مستوى اللغة العربية ، ما دفعه الى إصلاحها باعتبارها لغة القرآن. حيث يقول " إنّ الامر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة و مصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على كافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس " ¹⁰².

فالأستاذ الامام رأى أن الجمود و التخلف الذي أصاب الامة الإسلامية قد أثر على لغتهم فأصابتها الركاكة و غموض في العبارات و المصطلحات و رداثة المحسنات البديعية من سجع و جناس و طباق جعلتها غامضة و غير مفهومة و كادت أن تضمحل و تفنى ، فنجده مثلاً يقول عن لغة الصحافة و خاصة جرائد الاخبار : " أنّ ألفاظها و أساليبها مما يسوء أهل

¹⁰¹ عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق ص 58.

¹⁰² محمد رشيد رضا، المصدر السابق ص11

الذوق و يخيف أهل الغيرة في الكثير الأغلب ، فانك ترى أولئك العجزة الضعفاء يخترعون ألفاظاً من عند أنفسهم يستخدمونها فيما يشائون من المعاني و يهوشون بها اللغة تهميشاً فلا يبالون بما يقدمون أو يأخرون ، و لا يرجعون في ذلك الى المعجم و لا يجرون على قاعدة، فيزيدون اللغة ضعفاً على ضعفها ، و يصكون وجه الفصاحة و يضعفون قفا البلاغة... " 103 .

إنّ كتابات محمد عبده و مؤلفاته كلّها كتبها بلغة عربية فصحي خالصة كما فعل أستاذه جمال الدين الافغاني و كما كتب قبله فلاسفة الإسلام ، و هذا حتى يبين لنا مدى أهمية اللغة العربية في نهوض و في تطور الامة الإسلامية.

هكذا قد قدّم لنا محمد عبده الكثير فيما يخص عملية الإصلاح الديني ، مدركاً أن عماد هذه الامة هو الدين الإسلامي واللغة العربية التي هي لغة القرآن، ففسادهما فسدت الامة و بصلاحيهما سيُصلح حال هذه الامة. و لولا هذين العنصرين (الإسلام و العربية) لما كن هناك شيئ اسمه حضارة عربية إسلامية.

3- الإصلاح الاجتماعي :

لقد تطرق الأستاذ الامام في مشروعة الإصلاح الى مجموعة من القضايا الاجتماعية التي تسببت في تخلف العرب و المسلمين و حاول إصلاحها مقترحا مجموعة من الحلول و اعتبرها السبيل الكافي لتحقيق النهضة في العالم العربي الإسلامي، و من بين القضايا الاجتماعية التي عالجها نذكر :

أ- القضايا الأسرية :

إنّ الاسرة هي اللبنة الأولى لتكوين المجتمع، أو هي النواة الأساسية التي يتشكل منها المجتمع ، فيصلحُ بصلاحيها، و يفسدُ بفسادها، يقول الأستاذ الامام عن الأسرة : " إنّ الامة تتكون من البيوت - العائلات - فصلاحيها صلاحها.. و من لم يكن له بيت لا تكون له أمة... " 104، فهو يرى أن الامة تتألف من البيوت (العائلات)، و صلاح هذه الامة يكون بصلاح البيوت ، و من لم يكن له بيت لا تكون له أمة. و ذلك أنّ عاطفة التراحم و داعية التعاون إنّما تكونان على

103 محمد عمارة، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق ص 258

104 محمد عمارة، المرجع السابق ص 237

أشدهما و أكملهما في الفطرة بين الوالدين و الأولاد، ثم بين سائر الأقربين ، فمن فسدت فطرته لا خير فيه لأهله ¹⁰⁵، و من لا خير فيه لأهله لا خير فيه للناس و لا للأمة.

و هناك عاملين أساسيين كانا السبب وراء الاهتمام الذي أبداه محمد عبده للأسرة و هما :

- تكوينه الريفي حيث أنّ قيم المجتمع الريفي الزراعي تُقيم وزنا كبيرا للعلاقات و الروابط الاسرية و تقدّس هذه الروابط.

- التفكك و الانحلال اللذان اصابا العلاقات الأسرية التقليدية ، حيث أجرى بحثا في هذا المجال ، و خاصة في ميدان المحاكم و ما تزخر به من قضايا فساد الاسرة و الطلاق و ما الى ذلك باعتبارها كان قاضياً في إحدى المحاكم ، حيث يقول : " انني قد استنتجت بالاستقراء منذ كنت قاضيا في إحدى المحاكم الجزئية أنّ نحو خمسة و سبعون في المئة من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض ، بما لم يحمل عليه غير التباغض و حب الواقعية و النكائية، فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلاقات الطبيعية الى هذا الحدّ من التصرم و نتسائل عن تصرم العلاقات الوطنية؟! هل يمكن أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات ، أن نبحت عن

الروابط للجامعة الكبرى، أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعدما جدّ أصولها و جذورها ، و قطع أوصال عروقتها، و غادرها قطع أخشابٍ يابسة؟! " ¹⁰⁶.

ان من أهم القضايا الاسرية و الاجتماعية التي شغلت بال الأستاذ الامام هي " قضية المرأة" باعتبارها لبنة الأسرة الأساسية ، حيث تطرق الى ثلاث قضايا شغلت المرأة منذ فجر التاريخ و ناضلت من أجلها و من أجل الانتصار على قيم المجتمع البالية ، و بل زالت تناضل المرأة العربية الى يومنا هذا من أجلها، و هي : قضية التعليم، و قضية الطلاق، و قضية تعدّد الزوجات و قضية الحجاب.

لقد كانت المرأة العربية منذ قرونٍ مضت تعيش حياة الاستعباد و الظلم في مجتمع ذكوري ، للذكر فيه كل الحقوق و الامتيازات ، بينما المرأة كانت مجردّ تابعة للرجل و خادمةً عنده لا يجوز لها أن تخرج لا للدراسة و لا للعمل و لا للتسوق الاً لضرورة قصوى ، و إذا خرجت يجب أن تغطي جسمها بالكامل بلباسٍ أسود، و كانت مهمتها تكمن فقط في بيتها و الاهتمام بشؤون البيت من طبخ و تنظيف و تربية الأولاد و الاهتمام بشؤون الزوج، كما أن الرجل يجوز له أن يتزوج عليها و يضربها و أحيانا يصل به الأمر الى تعنيفها ، كما أنها كانت مجرد أداة متعة يستمتع بها الرجل في الفراش لتلبية غرائزه. كلّ هذه العوامل اثارت حفيظة

¹⁰⁵ المرجع نفسه ص 239

¹⁰⁶ محمد عبده، الاعمال الكاملة ج1، المصدر السابق ص 172

محمد عبده و الكثير من المفكرين و غيرهم ممن أشفقوا على المرأة العربية و لم يرضوا لها هذا الوضع، فناضلوا من أجل تحريرها و حقوقها، رغم الاضطهاد و الحملة الشرسة التي تعرّضوا لها من طرف الفقهاء و من أصحاب العقول الدوغمائية المتحجرة، الذين كانوا يرون في هذا الاستعباد و الظلم شرف المرأة و كرامتها الذي أراده لها الاسلام !.

لقد رأى محمد عبده أنّ قضية المرأة في الإسلام عكس ما يدّعي هؤلاء الفقهاء و غيرهم فكل ما تعانيه المرأة هو وليد عادات و تقاليد لا تمت الى الإسلام بصلة. فالاسلام لم يرضى و لن يرضى هذا الوضع للمرأة ، كيف لا و هو قد ساوى بين الرجل و المرأة في الحقوق ، و الواجبات مساواة حقيقية ، بكل ما تحمله كلمة (مساواة) من معان ¹⁰⁷، حيث قال مقولته الشهيرة " الرجل و المرأة متماثلان في الحقوق و الأعمال و الذات و الشعور و العقل... أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم فإنهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم" ¹⁰⁸. و قد استشهد محمد عبده على ذلك بعدة آيات قرآنية منها قوله تعالى : "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" ¹⁰⁹ ، حيث يتطرّق في تفسيره هذه الآية الى أن الرجال و النساء متماثلان في كل شئ في الذات و الشعور و الإحساس و العقل ، فليس من حق أحدهما أن يستعبد الآخر، و بالتالي فالرجل و المرأة متساوون في كل شئ الأ حالة واحدة عبر عنها الأستاذ الامام بقوله تعالى : "وَلِلرِّجَالِ عِظْمٌ كِغِظْمِ النِّسَاءِ" ¹¹⁰، و هذه الدرجة التي فضّل الله بها الرجال عن النساء يفسرها الأستاذ الامام بال "قوامة" كما جاءت في القرآن : "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ" ¹¹¹، فالقوامة كما يرى الأستاذ الامام تعني القيادة ، حيث أن الحياة الأسرية هي حياة اجتماعية، و لا بدّ في كل اجتماع أن يكون هناك رئيس يُسيّر الوضع، لأنّ المجتمعين لا بدّ و أن تختلف آرائهم و رغباتهم و وجهات نظرهم...، و لن تجتمع هذه الآراء الا اذا كان هناك رئيس يُسيّر الاجتماع، حتى لا ينقسم هذا الاجتماع، و رئيس الأسرة هو الرجل أو الأب. فهذه هي فقط الميزة التي يتميّر بها الرجل عن المرأة في الإسلام عند محمد عبده، أمّا غير ذلك فليس لأحدهما فضل على الآخر، و من يدّعي ذلك فهو جاهل بتعاليم الإسلام.

و بعد أن ساوى محمد عبده بين الرجل و المرأة، دعى الى ضرورة تعليم المرأة، حيث أن المرأة في ذلك الزمان لم تكن ترتاد المدرسة، و لا تفقه شيئاً من العلم و خاصة العلوم الشرعية و كان خصوم و أعداء تحرير المرأة يعتبرون أن في ذلك عفة و حياء، ما أدى بهنّ الى الجهل و أصاب عقولهنّ الجمود و سيطرت عليها الأساطير و الخرافات. فالمرأة لا يمكن أن تدير منزلها الا بعد

¹⁰⁷ محمد عمارة، الإسلام و المرأة في رأي الامام محمد عبده، دار الرشاد، القاهرة، ط5، ص 19

¹⁰⁸ محمد عبده، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق ص 237

¹⁰⁹ سورة البقرة، الآية 228

¹¹⁰ سورة البقرة ، الآية 228

¹¹¹ سورة النساء، الآية 34

تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية و الأدبية ، حيث يجب عليها أن تتعلم كل ما ينبغي ان يتعلمه الرجل ، من التعليم الابتدائي على الأقل حتى يكون لها إلمام بمبادئ العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها ، و إتقانه بالاشتغال به متى شاءت 112 ، فكيف يمكن أن تنشأ اسرة مثقفة و واعية و سليمة في المجتمع، و أحد أهم ركائزها عكس ذلك، و كيف للأم أن تعلم أبنائها و تربيهم التربية اللازمة ، و هي بطبيعتها جاهلة و غير مثقفة و لا تفقه شيئاً في أمور التربية!.

فإذا تعلمت المرأة القراءة و الكتابة ، و اطلعت على أصول الحقائق، العلمية، و عرفت مواقع البلاد، و أجالت النظر في تاريخ الأمم ، و وقفت على شئ من علم الهيئة و العلوم الطبيعية، و كانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد و الآداب الدينية استعدت عقلها لقبول الآراء السليمة، و طرحت الخرافات و الأباطيل التي تفتك بعقول النساء 113.

فهذا هو الموقف الذي اتخذه محمد عبده، حيث نادى منذ وقت مبكر بتعليم المرأة، و تمنى أن تنهض هذه القلة المستنيرة من النساء المتعلمات بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات ، و حبذ هذا الدور لهنّ على ما يشغلنّ من أمور السياسة 114 .
و بعد أن عالج الأستاذ الامام الى موضوع تعليم المرأة ، تطرق الى موضوع "تعدد الزوجات"، و وقف منه موقف المعارض و الراض لما له من آثار سلبية تعود على الأسرة و الأولاد ، و أنّ الأصل هو الزواج بإمرأة واحدة، فحاول حل هذا الإشكال و إصلاحه.

فمن المعلوم أنّ الإسلام أباح التعدد و أن القرآن حدّد عددهن بأربعة حيث قال : " وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً " 115 ، فالقرآن إذا أخذ على ظاهره ربّما فهم منه ما يخالف اتجاهه نحو الوحدة في الزوجية ، و هذا ما صرح به جمهور المفسرين ، لكن الأستاذ الامام يفسر هذه الآيات تفسيراً اخر 116 ، حيث يرى أن التعدد مرتبط بشرط العدل، فاذا اختل هذا الشرط ، اختل نظام الأسرة و المنزل ، ثم أشار القرآن الى آية أخرى :

" وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ " 117 ، و بالتالي فإنّ تحقق شرط العدل صعب جداً ان لم يكن مستحيلاً خصوصاً في وقتنا الحاضر، فالموقف ليس موقف الترغيب في التعدد بل التبغيض له 118 ، و رجح الى أن يكون المقصود هنا هو أنّ ميل القلب الى واحدة من النساء و

112 قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، مصر، 2016، ص 18

113 المصدر نفسه ص 18

114 محمد عبده، الاعمال الكاملة ج1، المرجع السابق ص 174

115 سورة النساء، الآية 03

116 عثمان أمين، رائد الفكر المصري الامام محمد عبده، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1996، ص 205

117 سورة النساء، الآية 129

118 محمد عبده، الأعمال الكاملة ج1، المصدر السابق ص 178

إيثارها على غيرها ، أمر يعسر فيه توخي العدل، اذ لو لم يكن هو المقصود لكان مجموع الأيتين منتجاً منع العدّد إطلاقاً¹¹⁹، و بالتّالي اذا كان الشرع قد أباح التعدّد فلضرورة قصوى و تحت شروط معينة ، و لا يدخل ضمن الفرائض و الأحكام الواجبة كالصلاة و الزكاة و الصوم. و يرى الأستاذ الامام أن التعدّد يوّلّد مجموعة من الأضرار من بينها :

- أن في التعدّد ضرر للمرأة و احتقاراً لها، فلا توجد امرأة تريد أن تشاركها امرأة أخرى زوجها، و من المعروف أن المرأة بطبيعتها تغار أكثر من الرجل.
- التعدّد يوّلّد العداوة بين الأبناء.
- سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدّد، و حرمانهنّ من حقوقهنّ في النفقة و الراحة¹²⁰.
- أنّ منشأ الفساد و العداوة بين الأبناء هو اختلاف امهاتهم¹²¹.

و بناءً على ذلك يجب على الحاكم و العالم، أن يمنع تعدّد الزوجات ، اللهمّ الآ في حالة ما اذا كانت الزوجة عقيماً ، فان للقاضي أن يتحقّق من قيام هذه الضرورة¹²²، أي ضرورة الانجاب و موافقة

هكذا قد عارض محمد عبده الفقهاء و المفسّرين، و منّع التعدّد ، و كُفّر بسبب ذلك و اتّهم بالزندقة، و لم تطبّق أقواله الى اليوم هو و من وافقوه الرأي من دعاة تحرير المرأة ، فكانت الغلبة دائمة للفقهاء و لأنصار التعدّد و من يحتقرون المرأة. و لازال المسلمون الى يومنا هذا و نحن في القرن الواحد و العشرين يمارسون التعدّد و يرونه من ثوابت الدّين ، و لا زال الى اليوم يتزوج الرجل على زوجته باسم الدّين ! ، و هو في الحقيقة يمارس التعدّد فقط لاشباع شهواته الحيوانية. فإذا كان الرجل لا يرضى أن تشاركه زوجته رجلاً آخر، و يعتبر ذلك إهانة له و إنتهاكاً لشرفه ، فكيف للمرأة أن ترضى و توافق أن تشاركها امرأة أخرى زوجها و فراشها؟ ، أم أنّ الشرف يقتصر فقط على المرأة!، فهذه العقلية الذكورية اذا لم يتم ازالته لا و لن تتحقّق النهضة في مجتمعاتنا، لأنّ المجتمع يشارك في بناءه الرجل و المرأة معاً، و ليس

الرجل وحده، و كما يقول الفيلسوف الألماني كارل ماركس : " إذا أردت أن تعرف مدى تقدّم مجتمع ما، فانظر الى وضع المرأة".

ثم تطرق الأستاذ الامام الى قضية أخرى، و هي قضية الطلاق، و حاول علاجها حيث قيدها و اعتبرها أمراً مكروهاً و بغيضاً و وصمة عار الحياة الزوجية و من أسباب انتشار الفساد في المجتمع ، و شرّ أنواع الظلم التي يوقّعها انسان بانسان ، حيث يقول : " إنّ ظلم الأزواج للأزواج أعرق في الإفساد و أعجل في الإهلاك من ظلم الأمير للرعية ، إنّ رابطة الزوجية أمتن الروابط

119 عثمان أمين، المرجع السابق ص 206

120 محمد عمارة، الإسلام و المرأة في رأي الامام محمد عبده، المرجع السابق ص 41

121 المرجع نفسه ص 41

122 محمد عبده، المصدر نفسه ص 179

و أحكمها فتلا في الفطرة ، فإذا فسدت الفطرة فساداً انتكث به هذا القتل ، و انقطع هذا الحبل..."
123

و قد قيّد محمد عبده الطلاق عن طريق وضع مجموعة من المواد القانونية لتفادي هذه الفوضى وهي :

المادة الأولى : كل زوج يُريد أن يطلق زوجته عليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه و يخبره بالشِّقّاق الذي بينه و بين زوجته ¹²⁴

المادة الثانية : لا يجب على القاضي أو المأذون أن يتسرّع ، و يأمر الزوج بأن يتمهّل لمدة أسبوع على الأقل ، و أن يبيّن له و يرشده من الكتاب و السنة أن الطلاق ممقوت عند الله و رسوله .

المادة الثالثة : إذا مضى أسبوع و أصرّ الزوج على الطلاق ، فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج و حكماً من أهل الزوجة أو عدلين من الأجنب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما ¹²⁵.

المادة الرابعة : إذا لم ينجح الأمر و لم ينجح الحكمان في الإصلاح بين الزوجين ، فعليهما أن يقدّما تقريراً للقاضي ، و عند ذلك يأذن القاضي للزوج بالطلاق.

المادة الخامسة : لا يصحّ الطلاق إلاّ إذا وقع أمام القاضي أو المأذون ، و بحضور شاهدين ، و لا يقبل إثباته إلاّ بوثيقة رسمية ¹²⁶.

هكذا نهى محمد عبده عن الطلاق إلاّ لضرورة قصوى، و سنّ هذه القوانين و وضع مجموعة من القيود و الضوابط حتى لا يندم الزوجان بعد ذلك ، فكم من أزواج ندموا بعد أن تفرقوا و كم من أولاد شرّدوا و كم من أسرٍ تفكّكت بسبب الطلاق.

و من القضايا التي شغلت كذلك بال الأستاذ الامام و كثير من الفكرين "قضية الحجاب". لقد وقف الأستاذ الامام موقف المعارض و الرفض لمسألة الحجاب ، و نقصد بالحجاب هنا هو النقاب و القفازين اللذين ترتديهما المرأة ما يجعلها مغطاة بالكامل من فوقها الى أسفلها.

إنّ الحجاب بصفة عامة ليس مسألة خاصة بالمسلمين وحدهم ، ولم يأتي بها الإسلام أولاً، فقد كان موجوداً قبل الإسلام و عرفته شعوب و ثقافات أخرى، ثم جاء الإسلام فشرّعه و دعا اليه ، لكنّه لم يدعو الى التحجب بهذه الطريقة المبالغ فيها بوضع النقاب و ما الى ذلك، فلا يوجد في الشريعة نصّاً يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، و إنما هي عادة عرضت عليهم من

¹²³ محمد عمارة، الإسلام و المرأة في رأي الامام محمد عبده، المرجع السابق ص 30

¹²⁴ محمد عمارة، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق ص 245

¹²⁵ المرجع نفسه 246

¹²⁶ محمد عبده الأعمال الكاملة، ج2، المصدر السابق ص 123

مخالطة بعض الأمم، فاستحسنوها، و أخذوا بها، و بالغوا فيها، و ألبسوها لباس الدّين كسائر العادات الضارة التي تمكّنت في الناس باسم الدّين، و الدّين براء منها 127.

و يرى الأستاذ الامام أن للحجاب أضرار كثيرة منها :

سهولة الغش و الخداع ، فكيف لإمرأة مُغطاة بالكامل أن تتعامل مع الرجال في حالات البيع و الشراء أو في حالات الشهادة في المحكمة ، حيث يقول الامام : " و كثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية، سهولة استعمال الغش و التزوير في مثل هذه الأحوال ، فكم رأينا أنّ امرأة تزوجت بغير علمها، و أُجرت أملاكها بدون شعورها، بل تجرّدت من كل ما تملكه على جهل منها، و ذلك كله ناشئ من تحجّبها و قيام الرجال دونها يحولون بينها و بين من يعاملها" 128.

و يرى الامام محمد عبده أن الله تعالى خلق المرأة في هذا العالم حرّة، و من حقها أن تخرج و تتسوق و و تتاجر، من حقّها أن تستمتع بمزايا هذا العالم و تنتفع منه مثلها مثل الرجل ، فكيف يمكن لإمرأة محجبة أن تتاجر و تتعامل مع الآخرين؟ كيف يمكن لمحجبة أن تتخذ صناعة و تجارة تقّات منها اذا كانت فقيرة؟ كيف يمكن لإمرأة مغطات بالكامل أن تعمل في بيت فيه رجال؟ 129، و حتى في المحاكم و القضاء، كيف يمكن لامرأة محجبة سواء كانت شاهدة أو مدعية أو مدّعى عليها، كيف يمكن أن يعرفها القاضي و الخصوم و الشهود أنها هي المرأة المنشودة؟، و من يدري لعلها امرأة أخرى تنتحل شخصيتها ، و خصوصا في وقتنا الحاضر الذي كثرت فيه المتناقضات بحيث يمكن لرجل أن ينتحل شخصية امرأة بسهولة و يقلّد صوتها.

اننا ننتقد الغرب اليوم و نلعنه عندما يمنع النقاب في المدارس و الجامعات و الأماكن العامة ، و نتساءل أين هي الحرية و الديمقراطية التي يدّعيها الغرب!، و نقول : إنهم حتى لا يحترمون حرية المسلمين و خصوصياتهم ، إنهم يكرهوننا نحن المسلمين... . لكن لا أرى أية عداء و كراهية في هذه المسألة ، بل من يمنع النقاب معه كلّ الحق ، ذلك لما فيه من ضرر خصوصا و قد كثر الإرهاب و المتطرفون اليوم، و تسلّلوا الى أوروبا و الغرب، فمن الطبيعي أن يخاف الانسان الغربي على نفسه، فيمكن لارهابي أو سجين هارب مطلوب للعدالة أن يتخفى من وراء الحجاب. و أمّا هؤلاء الذين يعتبرون وجه المرأة عورة و فتنة، لماذا لا يعتبرون وجه الرجل الوسيم فتنة بالنسبة للمرأة ، فلماذا لا يتحجب الرجل ، أم أن المرأة أقوى منه في كبح شهواتها و غرائزها !.

هكذا رأى محمد عبده بأن الحجاب على هذه الطريقة ليس من الشريعة الإسلامية ، بل الشرع أباح للمرأة كشف وجهها و كفيها، كما لا يوجد اتفاق و اجماع بين المذاهب الأربعة يقضي بوجود النقاب، بل النقاب هو عادة قديمة من العادات السابقة على الإسلام، حيث يقول : " و الحق أن الانتقاب و و التبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية لا للتعبد و لا للأدب، بل هما من

127 قاسم أمين، المصدر السابق ص 39

128 محمد عبده، الاعمال الكاملة ج2، المصدر السابق ص 107

129 عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق ص 156.

العادات القديمة السابقة على الإسلام و الباقية بعده، و يدلنا على ذلك أن هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الإسلامية و أنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التي لم تتدين بدين الإسلام.¹³⁰

ب- بعد أن عالج الأستاذ الامام القضايا الأسرية و قضايا المرأة، ذهب الى معالجة مسائل إجتماعية أخرى كمسئلة اضراب العمال المصريين سنة 1900م ، حيث شهدت مصر في تلك الفترة ، أكبر إضراب قام به عمّالها ضد الشركات الرأسمالية الاستغلالية ، التي كان الأجانب يسيطرون على معظمها ، و قد عُرف هذا الاضراب باسم "إعتصاب" (لفاي السجائر) ، حيث شارك فيه ما يزيد عن 30000 من العاملين بصناعة السجائر، و خاصة في شركة (ماتوسيان)¹³¹. حيث أدلى الأستاذ الامام برأيه في هذه القضية ، بعد أن

استفتاه فرح أنطوان ، باعتباره مفتياً للديار المصرية آنذاك ، فبعث الى فرح أنطوان بفتواه التي تُعدّ أول فتوى إسلامية تُقرّ أن روح الإسلام ضد الفلسفة الفردية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي ، و أن روح هذا الدين توجب على الحكومة التدخل في الشؤون الاقتصادية لمصلحة جماهير المحكومين ، سواء أكان ذلك بإقامة الصناعات و إدارتها ، أم بتحديد أسعار السلع التجارية، أم بانصاف العمّال عن طريق رفع أجورهم، أو تقليل ساعات عملهم أو بالأمرين معا¹³²، و

بالتالي انحاز الأستاذ الامام الى صف العمال ضد أصحاب الأعمال و انتصر لمبدأ التحكيم و تدخّل الدولة في الصناعة و التجارة، و تقليل ساعات العمل التي كانت تصل الى 14 ساعة في اليوم و رفع اجورهم ، و قد استمرّ العمال المصريين على فتوى محمد عبده متمسكين بمبدأ التحكيم ، أي تدخّل الدولة في شؤون العمال حتى انتصروا في قرار مجلس الوزراء الذي أصدر في اوت 1919م بإصدار لجنة التوثيق بين العمال و أصحاب العمل¹³³.

لقد تميّزت الحياة الاجتماعية في مصر في عصر محمد عبده بوجود تفاوت طبقي كبير، حيث انقسمت هذه الطبقات الى طبقة عليا و طبقة وُسطى و طبقة دنيا، فأما الطبقة العليا كانت على رأس الطبقات و هي تتكون كبار ملاك الأراضي و التي كانت تمتلك 43.9 بالمئة من جملة الأراضي الزراعية، و قد اعتبر كبار ملاك هذه الأراضي أنفسهم الطبقة المؤهلة لحكم المجتمع فاحتلوا المجالس النيابية التي عرفتها مصر سنة 1866م، و كان منهم النظّار و المديرون ورؤساء المحاكم¹³⁴.

¹³⁰ محمد عبده، الأعمال الكاملة ج2، المصدر السابق ص 111

¹³¹ محمد عمارة، الامام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع نفسه ص 129

¹³² محمد عبده ، المرجع السابق ص 140

¹³³ عبد الكريم بوصفصاق، الفكر العربي الحديث و المعاصر ج1، دار مداد يونفارستيبيراس، قسنطينة، ط1، 2000 ص 358

¹³⁴ عبد العظيم رمضان، صراع الطبقات في مصر 1873- 1952 ، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1978، ص 141

أما الطبقة الوسطى فكانت تتكوّن من المثقّفين و الموظفين و أصحاب المهن الحرّة من المحامين و المهندسين و الأطباء و الصحفيين و الأساتذة و الطلاب ، و قد نشأت هذه الطبقة في عهد محمد علي إثر إنشاء نظام التعليم الحديث ، الّا أنها كانت محرومة من شغل المراكز اللائقة و التي كانت مخصصة للانجليز و الأجانب فقط.

و أمّا الطبقة الدنيا فهي تمثل عامة الشعب من تجّار و فلاّحين و أصحاب الورش الصناعية ، و اتسمت أحوال هذه الطبقة بأجورها المنخفضة و كثرة ساعات العمل. و قد كان الفلاّحون يشكلون غالبية سكّان مصر و كانوا لا يملكون الّا مساحات قليلة من جملة الأراضي الزراعية ، و كانوا يعانون من الضرائب الكثيفة المفروضة عليهم بالقوة و الاجبار.

و هناك طبقة أخرى تمثلت في الطوائف الأجنبية التي تمثلت في الأوروبيين الذين ازداد عددهم في الأراضي المصرية نتيجة الامتيازات و التسهيلات التي مُنحت لهم ، حيث امتلكوا الأراضي الزراعية و البيوت و المباني ، كما كانوا غير معنيين بدفع الضرائب مما جعلهم يشتغلون في وظائف مرموقة¹³⁵.

فهذا الصراع الطبقي الذي عاشته مصر، رفضه الامام محمد عبده رفضاً قاطعاً و وقف ضد الرأسمالية و دعا الى المساواة و الاشتراكية ، لكنه لم يكن إشتراكياً بالمعنى الذي تتضمنه

الاشتراكية اليوم كما يرى الأستاذ محمد عمارة في تحقيقه لكتاب (الأعمال الكاملة) حيث يقول: " فالرجل لم يكن اشتراكياً بمقاييس عصرنا الرّاهن عن الاشتراكية ، كما أنّ الكثير من مفاهيمنا عن الطبقات و صراعاتها و قوانين هذه الصراعات لم تكن في حسبانها و لا في عقله عندما كان يفكر و يصدر آراءه و فتاويه ، لأنّ هذه المفاهيم لم تكن قد استقرّت و لا انتشرت في المجتمع الذي عاش فيه...، و لكنّه في ذات الوقت لم يكن بعيداً عن أصول القضية و جذورها و الأسباب التي تدفع بها الى الظهور... " ¹³⁶، أي أنّه كان يدعو الى الاشتراكية ولكن بطريقة غير مباشرة ، و كان كلّ همّه هو المساواة و رفض هذا النظام الطبقي المتوارث الذي يصبح فيه الإنسان غنيا لان ولد في بيئة غنية و فقيراً لانه ولد فقيراً، فدعى الى العمل و الاجتهاد في كسب الرزق و رفع الظلم الذي تمارسه الرأسمالية في المجتمعات.

فقد كان للامام آراء عدة في الاقتصاد و مواقف كثيرة ضد الرأسمالية ، فهو يعتبر المزاي الاجتماعية و الاقتصادية التي تعود على الانسان ثمرة للجهد الجماعي للجماعة البشرية التي ينتسب إليها، و ليست ثمرة لجهده الذاتي و الفردي فقط ¹³⁷، و قد اعتبر أن الظلم الذي تمارسه المؤسسات و الأنظمة الاقتصادية أشدّ أنواع الظلم الذي يلحقها الانسان بأخيه الانسان ، و هذا كله

¹³⁵ المرجع السابق ص 171

¹³⁶ محمد عبده، الاعمال الكاملة ج1، المصدر السابق ص 132

¹³⁷ المصدر نفسه ص 138

بسبب حُبِّه و تعلقه الشديد بالمال ، حتى أنه اعتبر أن الجمع بين التعلق الشديد بالله و التعلق الشديد بالمال في قلب واحد أمراً مستحيلاً عند الانسان"138، و اعتبر هؤلاء الأغنياء الذين يبخلون بأموالهم على الفقراء كافرون بالله ، لأن الله تعالى أمرنا بالانفاق في سبيله في عدة آيات و نهانا عن البخل و كثر المال.

هكذا عارض محمد عبده هذا النوع من الظلم لانه هو المصدر الأساسي لانتشار الفساد في المجتمع، و المسلم الحقيقي هو الذي ينفق أمواله و يتعاون مع أخيه المسلم في السراء و الضراء. و كان موقفه من المال موقفاً وسطياً حيث رأى بأن المال ليس مذموم في ذاته ، و لا مبغضاً عند الله، و لكن في نفس الوقت لا يجب أن يكون هو الغاية في هذه الحياة يلهث الانسان وراء كسبه مستعملاً شتى الطرق و إن كانت محرمة.

4- الإصلاح السياسي :

لقد مارس محمد عبده السياسية في فترة من حياته، لكنّه لم يداوم عليها، حيث نجد له كتب و آراء و نظريات في السياسية و في أشكال الحكم و الدولة ، و ألقى خطاباً سياسية ثورية في وسط الثورة العربية ، و شارك في حوارات سياسية ، إلا أنه اعتزل السياسة فيما بعد و انشغل فقط بالإصلاح الديني و الاجتماعي و التربوي ، و ذلك بسبب ما رآه في السياسة من مكر و خداع

حيث قال قولته الشهيرة في كتابه عن الإسلام و النصرانية : " أعوذ بالله من السياسية و من لفظ السياسية.. و من ساس و يسوس و سانس و مسوس " ، و " أن السياسة ما دخلت شيئاً إلا أفسدته " و " إن شئت أن تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين " 139. و هذه تعد بمثابة ضربة للإسلاميون اليوم أو أصحاب الإسلام السياسي الذين يخلطون الدين مع السياسة.

لقد تطرق محمد عبده في إصلاحه السياسي الى عدة نقاط شملت أولاً الحكام ، حيث رأى أن من الأسباب الرئيسية لتخلف الأمة العربية الإسلامية هو سوء تسيير شؤون الدولة من قبل حكامها ، و إهمال الشعب و عدم إعطائه حقوقه الكاملة ، مما يجعل هذا الأخير يخرج عن طاعة الحاكم و من ثم تحدث الثورات و الفوضى ، ولذلك وجب على الحاكم أن يكون عادلاً مع شعبه و في المقابل يكون الشعب طائعاً للحاكم ، حيث يقول محمد عبده على لسان تلميذه رشيد رضا : " و هناك أمر آخر كنت من دعائه و الناس جميعاً في عمى عنه، و بعد أن تعقله ، و لكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية و ما أصابهم الوهن و الضعف و الذلّ إلا بخلو مجتمعهم منه و ذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب و ما للشعب من حق العدالة على

138 عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق ص ص 361-362

139 زكريا سليمان بيومي، التيارات السياسية و الاجتماعية بين المجددين و المحافظين دراسة تاريخية في فكر الشيخ محمد عبده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ص 69

الحكومة "140. كما يرى بأن هؤلاء الحكام هم بشرٌ مثلنا لهم غرائز و شهوات و يخطئون و يصيبون قد يسيئون معاملة الشعب أحيانا ، و هذا الأخير لا يجب أن يخرج عن طاعته مباشرة، بل يجب عليه أن ينصح و يرشد الحاكم الى طريق الصواب بما يخدم مصلحة البلاد و العباد، يقول محمد عبده : " الحاكم و ان وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون و تغلبهم شهواتهم ، و أنه لا يرده عن خطأه و لا يقف طغيان شهوته الاّ نصح الأمة له بالقول و الفعل " 141.

هكذا وضع الأستاذ الامام مجموعة من الشروط و الصفات التي يجب أن تتوفر في الحاكم، حتى يتحقق العدل و المساواة، و ينتشر الازدهار و الرخاء في البلاد ، و أهمها :

أ- أن يكون الحاكم مثقفاً، و صاحب رأي و مبدأ.

ب- أن يكون حاكماً مستتبدا عادلاً (أي حاكماً حازماً و صاحب قوة و عدل) ، نزيهاً شجاعاً حازماً.

ت- أن يوكل إليه مهمة العمل على اتحاذ الأمة بالإقناع أو بالقوة كي تُطبّق مبادئ الإصلاح الأخلاقي.

ث- على الحاكم أن يختار معاونيه في الحكم من أصحاب الذمة و الإرادة و القوة و الشجاعة...

ج- يجب على الحاكم أن يقيم العدل الذي يطالبه به الدين و الأمة معا ، و لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإذا فارق الكتاب و السنة وجب استبداله 142.

ح- أن يكون هو الرئيس المطاع و الناصح الأمين و الروح الصحيح لكل مجتمع إنساني 143.

و كما وضع محمد عبده شروطاً للحاكم ، وضع كذلك للحكومة في البلاد العربية مجموعة من الشروط و الصفات التي عن طريقها يتحقق الازدهار و تحقق النهضة و التطور، و أهمها :

أ- الشورى: حيث يرى محمد عبده أنّ الحكومة الإسلامية يجب أن تكون شورية ملتزمة بما جاء في الشريعة الإسلامية ، لأنّ الإسلام قد حدّد للحكومة إطار خاص يجب أن تسير وفقه و تلتزم به 144، فالشورى من أهم المبادئ التي يقوم عليها الحكم في الإسلام ، و قد حثّ الله عليها في عدّة آيات.

ب- بالحرية : دعا محمد عبده الى الحرية و الى إقرار حقوق الإنسان لاعتقاده بأنّ لا وطن الاّ مع الحرية، بل هما سياتان ، فإنّ الحرية إنما هي حق القيام بالواجب ، المعلوم ، فإن لم توجد فلا

140 محمد رشيد رضا، المصدر السابق ص 12

141 المصدر نفسه ، ص 12

142 زكريا سليمان، المرجع السابق ص ص 76-77

143 عثمان أمين، المرجع السابق ص 200

144 محمد عمارة، المنهج الإصلاحى للإمام محمد عبده، المرجع السابق ص 115

وطن لعدم الحقوق ، و هو ينكر أن يكون لأحد المأمورين سلطة على أحد من الأهالي الآ فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة¹⁴⁵.

ج- القانون : دعا محمد عبد الحكومة الى سنّ القوانين و ضبطها و احترامها و تطبيقها على الشعب بكل صرامة ، فالبلاد التي لا يُحترم فيها القانون و لا يُطبَّق على الناس سواسية هي بلاد يكون مثالها الفوضى و الهلاك ، فلا حياة و لا نظام بدون قانون.

و في مسألة أخرى، و هي مسألة الدولة الدينية و الدولة المدنية ، فلقد رفض محمد عبده السلطة الدينية و دعا الى مدنية الدولة ، لكنه دعا إلى دولة الإسلام و اعتبره الحل الأمثل لمشكلات كل العصور في كل المجتمعات، حيث يقول : " فكان الإسلام كاملاً للشخص، و ألفة في البيت، و نظاماً للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه"¹⁴⁶، فهو بذلك يدعو الى دولة إسلامية - و الإسلام هو دين - و في نفس الوقت يدعو الى دولة مدنية ! فكأنه يدعو الى دولة دينية مدنية ، و هذان مفهومان متناقضان خصوصاً في وقتنا الحاضر.

غير أن المدنية التي كان يدعو إليها الأستاذ الامام ليست المدنية بمعناها الغربي التي ترفض الدين ككل و تمنع اقحامه في المجالات السياسية و الاجتماعية ، بل المقصود منها نفي القدسية و الكهانة عن الدولة ، مع بقاء مرجعيتها إسلامية شرعية ، لأنّ الإسلام بعبارة محمد عبده دين و شرع ، وضع حدوداً، و رسم حقوقاً، و دولته هي الملتزمة بالمرجعية الإسلامية ، بالشرع و الحدود و الحقوق ، فهي دولة مدنية و إسلامية في ذات الوقت، و ليست كهنوتية، و لا علمانية ، إنها تميز بين الدين و الدولة دون فصل أو إتحاد¹⁴⁷.

هكذا رفض محمد عبده نموذج السلطة الدينية التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى و عرفتها الشعوب الأخرى من قبل ، بحيث يتم تقديس الحاكم فيها بإعتباره مفوضاً من عند الإله ، أو امره و نواهيه تشريعات وقوانين الهيئة ممنوع أن يتجرأ أحد على المساس بها ، و حاشيته هم الكهنة أو رجال الدين الذين يرجع إليهم عامة الناس في شؤون الحياة فيحطلّون و يحرمون وفقاً لما يخدم مصلحة الحاكم. فلا يجوز للحاكم أو الخليفة عند المسلمين أن يعتبر نفسه سلطان الهي ، و ليس لرجال الدين و الفقهاء أدنى سلطة على العقائد و تحرير الأحكام ، يقول الأستاذ الامام : " إن الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية التي عرفتها أوروبا، فليس في الإسلام سلطة دينية، سوى سلطة الموعدة الحسنة، و الدعوة الى الخير، و التنفير عن الشر، و هي سلطة خولها الله لكل المسلمين، أدناهم و أعلاهم، و الأمة هي التي تولي الحاكم، و هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، و هي تخلعه متى رأت ذلك في مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، و لا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين لما يسميه الافرنج (ثيوكرتيك) ، أي سلطان الهي ،

¹⁴⁵ قدرى قلنجي، ثلاثة من أعلام الحرية جمال الدين الأفغاني محمد عبده سعد زغول، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 185

¹⁴⁶ محمد عمارة، المرجع نفسه ص 120

¹⁴⁷ المرجع السابق ص 121.

فليس للخليفة بل و لا للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام ادنى سلطة على العقائد و تحرير الأحكام، و كل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية...¹⁴⁸.

اذن فالدولة التي دعا اليها محمد عبده دولة إسلامية - مدنية، إسلامية المرجعية و مدنية النظم و المؤسسات. فالإصلاحات التي قام بها محمد عبده دائماً ما اخذت طابع التوفيق بين الدين و متطلبات العصر، بين النظام الغربي و الإسلام، بين العقل و النقل، فأخذ من هذا و هذا و مزج بينهم و قدّم لنا نموذج الإصلاح.

المبحث الثالث : نقد مشروع محمد عبده الإصلاحي

إنّ المشروع الإصلاحي الذي جاء به الأستاذ الإمام محمد عبده كان شاملاً لكل الجوانب التي تخص المجتمعات العربية و الإسلامية ، من أجل إحداث النهضة و من ثم التقدّم و التطوّر و قيام الحضارة العربية الإسلامية من جديد ، هكذا كان هدف الأستاذ الإمام و غيره من المفكرين. الّا أن المشروع الذي جاء به لم يسلم من الانتقادات من طرف المفكرين الآخرين و لا من الهجمات الشرسة من طرف الفقهاء و قوى التقليد الرجعية.

1- نقد الإصلاح التربوي و التعليمي :

لقد ركّز محمد عبده في مشروعه الإصلاحي أكثر ما ركّز على التربية و التعليم ، و اعتبرهما الغاية التي تتحقق بهما النهضة في المجتمعات ، بل إنّ التربية عنده هي العصا السحرية التي تغيّر كلّ شيء، فهو بذلك قد خالف أستاذه جمال الدين الأفغاني الذي كان يرى أن السبيل الى النهضة يكون بالنضال السياسي و الثوري.

فقد إهتم الأستاذ الامام بالجانب التربوي، و أهمل الجانب السياسي، بل إعتقد الرجل بأنّ العمل التربوي يمكن أن ينجح و يثمر بعيداً عن التأثير بالعوامل السياسية و غيرها، و هذا واضح من قوله : " إني لأعجب لجعل نبهاء المسلمين و جرائدهم كلّ همّهم في السياسية ، و إهمالهم أمر التربية الذي هو كلّ شيء، عليه يبني كلّ شيء... " ¹⁴⁹، و واضح كذلك من نقده لأستاذه جمال الدين الأفغاني حين قال عنه أنه لو إهتم بإصلاح التربية

و التعليم أكثر من اهتمامه بشؤون السياسية لأفاد الأمة الإسلامية. هذه المواقف التي جعلت الأستاذ الإمام في ميزان النقد من طرف محمد عمارة الذي علّق على كتاب الامام (الأعمال الكاملة)، و عبد الرحمن بدوي أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين، و مفكرون آخرون. حيث يرى هؤلاء أنّ النهضة تتطلب الثورة و النضال السياسي الى جانب النضال الفكري و التربوي،

¹⁴⁸ المرجع نفسه ص 121.

¹⁴⁹ عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق ص 80

و لا يكفي النضال الفكري و لا التربوي وحده، اذ لا بدّ أن تكون هناك ثورة سياسية ، خصوصاً و أنّ مصر و الدول العربية في تلك الفترة كانت تحت وطئة الاستعمار الإنجليزي و الأجنبي.

فحقاً نحن لم نسمع في التاريخ كلّه أن شعب من الشعوب المستعمرة قد أخذ حقّه و حرّيته بثورة فكرية و تربوية دون أن تكون هناك ثورة سياسية أو ثورة مسلّحة و مقاومة و أحياناً العنف. بل إنّ الحضارة الأوروبية لم تكن لتصل إليه اليوم من تطوّر و إزدهار لو اكتفت فقط بالإصلاحات الفكرية و التربوية و لم تقم بثورة و مقاومة و نضال سياسي و اجتماعي ضد الظلم و الإستبداد و الفساد الذي كان يمارسه الحكّام و رجال الدّين ، الامر نفسه الذي تتعرض له الشعوب العربية اليوم !، فمحال أن يُستأصل هذا الفساد اذا اكتفينا فقط بإصلاح الأفكار و إصلاح التربية ، و لعلّ فشل مفكري النهضة العربية سواء في العصر الحديث أو المعاصر هو أن أفكارهم عبارة عن أمور نظرية مجرّدة لم تُطبق في الواقع و لم تلقى القبول و النّجاح ، لعدّة أسباب ابرزها أنه ليس هناك تغيير في المنظومة السياسية و لا الفقهية التي تسعى الى محاربة كل ما هو تنويري و جديد ، و مهمّ بالنسبة لها أن تبقى تلك الأفكار التقليدية القديمة ، و تلك الخرافات و الأساطير تسيطر على عقول الشباب ، و تسعى دائماً الى ترسيخ تلك الأفكار، حتى يبقى هذا العقل مخدّر دائماً و أبداً. فتغيير تلك المنظومة لا بدّ و أن يكون بنضال و ثورة، لا نقصد ثورة دموية و استخدام العنف المُسلّح لأن هذه الأمور لا تأتي بخير دائماً ، لكن لا بدّ من النهوض و الاحتجاج و السعي الى تغيير الحكّام المستبدين ، لا بدّ من ثورة قادتها فلاسفة و مفكّرين ، لأنّ الثورة و

النضال اذا قادها جهلة مثل (الإسلاميون) كما حدث في التسعينات من القرن الماضي في الجزائر و السودان و غيرها من الدّول العربية، أو كما يحدث الآن في مصر و سوريا فهي ثورة هالكة لا محال ، حتى و إن حققت مبتغاها ، لأنّها تريد أن تستبدل نظام استبدادي فاسد بنظام أكثر استبداداً منه لأنّ الدولة الدينية تقمّ الانسان على حسب دينه و معتقده و نحن نعرف الى مدى يؤول هذا الأمر و نعرف مدى فشل الدولة الدينية على مدار التاريخ و الحديث طويل في هذا المجال.

و يرى محمّد عمارة أن مثل هذا الموقف الفكري و العملي للأستاذ الإمام لم يكن ليُغضب قوات الاحتلال ، بل على العكس ، كانت ترى فيه هذه القوات "البديل النموذجي" عن موقف "التهيبج السياسي" ¹⁵⁰، الذي أزعجهم به الامام في أولى حياته قبل أن يعتزل السياسة ، و أستاذه الافغاني الذي شكّل مصدر خطر بالنسبة للانجليز أينما ذهب ، و قضى حياته منفيًا ينتقل بين الفينة و الأخرى .

فموقف محمد عبده من السياسية هو موقف يُرَجّب به المحتل ، لأنه ليس مجرد اعتزال فردي للسياسة، و إنما هو دعوة لهجران العمل السياسي و الاستعاضة عنه بالعمل التربوي، و تعليق

¹⁵⁰ محمد عبده، الأعمال الكاملة ج1، المصدر السابق ص ص 83-84

الآمال على التحرر بواسطته من الاحتلال و لو بعد قرون¹⁵¹، لان المستعمر بطبيعة الحال يعلم أن جهود محمد عبده و محاولاته سوف يتم اجهاضها من طرف قوى التقليد الرجعية و هذا ما حدث فعلاً ، فقد كان ذكيا اكثر من الأستاذ الامام الذي ظن أنه يستغلهم و يستخدم سلطانهم لتسهيل أعماله الإصلاحية.

و هناك نقطة أخرى يُعاب عليها الإمام و هي عندما عندما أوكل مهمة التربية الى الأغنياء و أصحاب النفوذ في تحقيقها و علق آماله عليهم ، و هذه نظرة مثالية غير واقعية و لا علمية¹⁵²، لأنّ هؤلاء الأغنياء لا تهتمهم سوى مصلحتهم و هم مصدر الفساد في المجتمع الأ من رحم ربي ، و الواقع يثبت ذلك.

و يُعاب على الأستاذ الإمام كذلك أنه انتقد المسلمين الذين يرسلون أولادهم الى المدارس الأجنبية طمعاً منهم -كما يقول الإمام- في تعليمهم علوماً ظناً في نفعها في معيشتهم ، أو تحصيلهم بعض اللغات التي يرونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم ، و كأنه يقول إنه لا ضرورة من تعليم اللغات ، في الوقت الذي تعلم هو نفسه اللغة الفرنسية ! و رأى أن تعلمها شئ

ضروري¹⁵³ ، و يُبرّر الأستاذ الإمام موقفه هذا بأنه خاف على التلاميذ من أن ينسوا دينهم ، لأنّ تلك المدارس كانت تعتمد على التنصير و محاربة قيم الإسلام و العروبة.

2- نقد الإصلاح الديني :

لقد تعرّض محمد عبده لمجموعة من الإنتقادات و الهجمات الشرسة أثناء سعيه لاصلاح الدين الإسلامي الذي شمل إصلاح الأزهر و المؤسسات الدينية ، و محاولته التوفيق بين الأصالة و المعاصرة ، و العقل و النقل، و بين الإسلام و قيم الحضارة الغربية و نقده للصوفية و للفقهاء التقليديين... الخ، و لم يكن النقد الموجه إليه نقداً حضارياً بناءً مثل نقد الأستاذ عمارة محمد مثلاً، بل نقداً لاذعاً شرساً يتسم أحياناً بالكلام البذيء و التهديد خاصة من طرف الفقهاء و قوى التقليد الرجعية.

فقد اتهمه يوسف النبهاني الفقيه و القاضي و الصوفي و أحد تلامذة الأزهر، بأنه كان عميلاً لدى الماسونية مع أستاذه الأفغاني و أنه كان تاركاً للفرائض ، و اتهمه بألفاظ لا تليق بمنزلة المفكر و الإمام ، فقد قال هذا الشيخ : " لما اجتمعت بالشيخ رشيد رضا، ذاكرته بشأن شيخه محمد عبده ، فقلت له في شأنه : "إنكم تتخذونه قدوة في دينكم ، و تدعون الناس الى ذلك ، و هذا غير صواب ، فلم يكن محافظاً على الفرائض الدينية ، فلا يصح أن يكون قدوة في الدين " ¹⁵⁴، و حجة النبهاني

¹⁵¹ المصدر نفسه ص 84

¹⁵² محمد عمارة، الإمام محمد عبده مجدّ الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق ص 217

¹⁵³ عبد الحليم عويس، التربية و إصلاح الأمة في مقالات محمد عبده، 02 مارس 2014، ضمن موقع :

<https://www.alukah.net/culture/0/67260>

في ذلك أنه رافقه في أحد الأيام و رآه لا يصلي بدون عذر!. و نردّ على هذا الشيخ و نقول له ، هل لديك شهود عيان على ذلك أم أنك الوحيد الذي رأى الإمام لا يصلي و لا يحج؟، ثم لنفترض حقاً أنك رأيت الأستاذ الإمام لا يصلي، و ما أدراك أنه ليس لديه عذر، فقد يكون وضع يُعذر فيه عن الصلاة ، و الأعدار كثيرة.

ثم يقول هذا الشيخ : " و ممّا لا يختلف فيه أحد أنّه كان هو و شيخه الشيخ جمال الدين الأفغاني داخلين في الجمعية الماسونية" ¹⁵⁵، لكن الشيخ النبهاني و أمثاله لم يعطونا و لود دليل واضح و صريح بأن محمد عبده و الأفغاني كانوا ضمن أعضاء الماسونية ، ثم انكم تقولون أن الماسونية هي ضد الدين و الإسلام و أعضائها عبدة الشيطان ، فكيف يكون محمد عبده داعياً و مصلحاً دينياً و في نفس الوقت يكون عدو الدين و الإسلام !!، فالنقيضان لا يجتمعان معاً.

ثم اتّهمه بألفاظ و عبارات بذيئة ، فنعته بأنّه كان أفسق الفساق بتركه أركان الإسلام ، و أنه أحد الجهّال و من الضالين المضلين و المفسدين الذين قال الله عنهم : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ" ¹⁵⁶، و أنّه أحد المفتونين الذين يدّعون الإجتهد المطلق، فيستنبطون الأحكام م الكتاب و السنة و يرفضون المذاهب الأربعة ، فهم كالأنعام يدّعي كل واحد منهم أنه من أئمة الإسلام ، و لكنه لا يتقيّد لا بالحلال و لا بالحرام ، و أنه متأثر بالفلاسة أعداء الإسلام ، حتى أنه مشي في إصلاحه الدّيني على طريقة البروتستانت ¹⁵⁷.

و واضح من هذا الموقف العدائي من الشيخ النبهاني و غيره اتّجاه الأستاذ الإمام من أنّه ردّ فعل لتصريحاته التي انتقد فيها الفقهاء الاصوليون و الصوفية ، حتى أنّه هو كذلك هاجمهم في عدّة مسائل و دعى الى قطع أيديهم التي تسرق أموال الناس...الخ، لكن الإمام لم يستخدم ولا عبارة شتم واحدة ، و لم يُلق التهم أو يتّهم أحد هكذا بدون دليل. و مهما يكن لا يجب أن يكون الردّ بهذه الطريقة و لا بهذا الأسلوب الهجمي ، فالنقد يجب أن يكون حضارياً بنّاءً بأدلة و براهين ، أما النقد الممزوج بعبارات دنيئة و شتم و تليف التهم من غير دليل واضح، فهذا يُعدّ بمثابة ضعف الشخصية ، و كما يقول قائل " ناقش الفكرة و لا تناقش صاحبها ".

و من الفقهاء الذين انتقدوا الأستاذ الإمام في مسألة الإصلاح الدّيني و خصوصاً إصلاح الأزهر، مصطفى صبري، الفقيه و شيخ الإسلام في الدّولة العثمانية ، و هو مصري النشأة إلا أنه عاش في تركيا، كما درّس في الأزهر. فهو يرى أنّ محمد عبده لمّا أراد النهوض بالأزهر، حارب

¹⁵⁴ محمد محمد حسين، الإسلام و الحضارة الغربية، دار الفرقان، 1985، ص 89

¹⁵⁵ المرجع نفسه ص 90

¹⁵⁶ سورة البقرة الاية 10 و 11

¹⁵⁷ محمد محمد حسين، المرجع السابق ص ص 90-91

علماء القدماء، و فضّ المسلمين و خصيصا الشباب المتعلمين من حولهم¹⁵⁸، و بالتّالي جعلهم ينفذوا عن العلم و يهجروا الأزهر بحكم أنه قضى على رجال الدّين هناك ، و استبدلهم بالعلماء و المفكرين ، ما تسبب بشكل كامل بالقضاء على الدّين و التراث ، لأنّ الأزهر هو الحافظ لهذا الدين و هذا التراث حسب الشيخ مصطفى صبري.

كما أنّه بسبب إصلاحه هذا و زعزته للأزهر ، قرّب كثيراً من الأزهريين الى اللادينييين خطوات، ولم يقرب اللادينييين الى الدّين خطوة ، و هو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدّين الأفغاني، كما أنّه هو الذي شجّع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر. فبدلاً أن يتغلب على مناظرته مع فرح أنطوان، و يهزم جيوش المنفرنجين الكامنين ورائه، هزم جيش علماء الدّين الذي هو جيشه¹⁵⁹. كما يرى أن محمد عبده و أستاذه الأفغاني أرادا أن يلعبا في الإسلام دور مارتن لوثر و جون كالفن زعيمي البروتستانت في المسيحية،

فلم يتسنّ لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين ، و إنما اقتصر سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنّع بالنهوض و التجديد¹⁶⁰.

و نلاحظ أنّ هذه هي طريقة الشيوخ و الفقهاء في الردّ و المواجهة ، فردّهم إمّا يكون بالتهجم و الشتم ، و اما بتلفيق التّهم الباطلة و اما بالتكفير و التبديع، هكذا هم أغلب الفقهاء التقليديين المتمزمتون ، فما ذنب الأستاذ الامام اذا أراد اصلاح الدّين ، فهو لم يقل أنا نبي جديد و لم نقرأ في كتاباته و مؤلفاته و مقالاته أنه قال أيّ جنّتكم بدين جديد، كل ما أراد هو تنقية الدّين الإسلامي من البدع و الخرافات التي لحقت به مما تسبب في تعطيل العقل العربي خاصة و أنّه يميل الى الدين بقوة، الأمر الذي جعل الأستاذ الإمام يوقّق بين الدّين و العلم و يبرهن أنّ الدّين ليس ضد العلم و لا ضد الحرية و لا الإنسانية.

ثم أين تكمن المشكلة اذا حاول الامام أن يفكّر مارتن لوثر في إصلاحه الدّيني ، فذاك أيضاً قد خلّص المسيحيين من سلطة الكنيسة و رجال الدّين ، مثلنا نحن اليوم الواقعين تحت سلطة الفقهاء و رجال الدّين و قوى التقليد و الجمود . و أين تكمن المشكلة اذا أخذ الأستاذ الإمام و غيره بعض مناهج و قيم الحضارة الغربية و أراد أن يطبقها على الثقافة العربية الإسلامية ، اذا رآها قيم صالحة و مساعدة على ايقاض العقل العربي و احداث النهضة، بل إنّ بعض القيم السائدة اليوم في الحضارة الغربية كانت في احدى الأيام سائدة في الحضارة الإسلامية ، و اخذها الغرب و طبّقها ، و طُمست عند العرب و المسلمين. فلا توجد فكرة من العدم و لا توجد حضارة تأسست هكذا بدون أن يكون هناك إحتكاك بالأفكار و الأشخاص ، و بدون الحرية الفكرية و الإنسانية،

¹⁵⁸ مصطفى صبري، موقف العقل و العلم و العالم من رب العالمين و عباده المرسلين، دار إحياء التراث العربي، بيروت-

لبنان، ط2، 1981، ص 57

¹⁵⁹ محمد محمد حسين، المرجع السابق ص 99

¹⁶⁰ مصطفى صبري، المرجع نفسه ص 144.

فمن هذه القيم تنشأ الحضارة. لكن هؤلاء الفقهاء يريدون لنا أن نعيش في مجال مغلق، فيمنعون حرية الفكر و المعتقد و يمنعون النقد الذي يمس التراث الإسلامي ، و يمنعون احتكاك الأفكار و أخذ العلم من الشعوب و الحضارات الأخرى الا ما يوافق الشريعة الإسلامية ، كما يمنعون التحديث و يحاربون الحداثة بكل أشكالها. و بالتالي فيُمنع منعاً باتاً المساس بالتراث الإسلامي و كأن الإسلام الذي نعرفه اليوم اسلامٌ خالص كما جاء من عند الله لم يتعرّض للتحريف ، و كأن ما قاله و ما جاء به السلف و الأئمة الأربعة من المستحيل أن يأتي مثله أئمة آخرون ، و كأنهم هم الانبياء !.

إن أفكار محمد عبده في مجال الإصلاح الديني ، تعكس مدى عمق فكر هذا الإمام و سعة إطلاعه و ثقافته الإسلامية ، و اهتمامه الكبير بالدفاع عن الإسلام ، لكن رغم ذلك هناك الكثير من المسائل التي يُعاب عليها في هذا المجال ، فهو مثلاً قد دعى الى التوفيق بين الماضي أي - عصر الرسول و الصحابة - و الحاضر أي قيم الحضارة الغربية ، لكنّه لم يحدّد لنا ما يجب أن

نأخذه من الماضي و الحاضر و ما يجب أن نتركه¹⁶¹، هل نأخذ الماضي كلّه بقيمه و أفكاره و مناهجه و ثقافته التي كانت سائدة و نوقّق بينها و بين الحاضر !، فهذا من المحال. ثم إن الماضي الذي يتغنى به الأستاذ أليس فيه أخطاء؟ ، اولم يقتتل الصحابة فيما بينهم في معركة الجمل و معركة صفّين؟، اولم تحدث فتن في عصر الرسول و في عصر الصحابة بعده؟، فالتغني بالماضي و الإسراف في الإشادة به ، سيكون من قبيل البكاء على الأطلال.

كما أن محمد عبده في حديثه عن العلم و الدين و محاولته التوفيق بين الجانبين ، لا يفرّق لنا بين علم و آخر، لا يفرّق بين علوم دينية و علوم لا تتصل اطلاقاً بالدين ، و هذا ما يؤدي الى الاعتقاد بأنّ محمد عبده من المفكرين الذين يذهبون الى أنّ الدين قد أدى الى التوصل الى جميع المكتشفات و النظريات العلمية ، و هذه من أكبر الأخطاء التي وقع فيها محمد عبده و كثيرٌ من المفكرين¹⁶²، فالعلم له مجاله الخاص و الدين له مجاله الخاص ، فمحاولة الاستنباط النظريات العلمية من القرآن هو ضرب من الوهم ، كما أن محاولة محمد عبده و غيره من المفكرين و الفقهاء في استخراج النظريات العلمية و الاكتشافات -التي يتوصل اليها الغرب- من القرآن ربّما سببها الشعور بالنقص اتجاه الغرب لأننا لم تمكن الى اليوم من اختراع أو اكتشاف و لو نظرية واحدة، فلذلك نغطي هذا الشعور و نوهم الغرب بأن اكتشافاتهم هي موجودة عندنا في الإسلام و القرآن ، لكن الحقيقة غير ذلك. فالإسلام يدعونا فقط الى النظر و التأمل و اعمال العقل، لكنّه لا يحوي على نظريات علمية، فالدين هو عبارة عن منظومة من القيم و الشرائع و الشعائر و إجابات على أسئلة غيبية كثيراً ما تشكّل هاجس للإنسان، و ليس مجموعة من النظريات و الاكتشافات العلمية.

161 عاطف العراقي، الشيخ محمد عبده، مفكراً، عربياً و رائداً للإصلاح الديني و الاجتماعي : بحوث و دراسات عين حياته و أفكاره، المجلس الأعلى للثقافة 1995، ص 24

162 المرجع نفسه ص ص 29-30

فرغم أن محمد عبده من المفكرين الجدد المعاصرين الذين دعوا الى الأصالة و المعاصرة، إلا أننا نجد أن الكم التراثي قد طغى على فكره أكثر من الكم العلمي و الفكري المعاصر.

3- نقد الإصلاح السياسي و الإجتماعي :

لقد كانت مواقف و أفكار محمد عبده السياسية و الاجتماعية محل جدل كبير بين المفكرين و الفقهاء ، وقد تعرّض لانتقادات شديدة بسببها، فقد اتُّهم الأستاذ الإمام بأنه كان موالياً للاستعمار الغربي و الانجليزي، و أنه كانت له صداقة قوية بالسيد "بلنت" أو ما يعرف ب "ويلفريد سكوين بلنت" -أحد النبلاء الإنجليزي و كاتب و شاعر و مستشرق انجليزي-، و هو الذي توسط لمحمد عبده لدى المعتمد البريطاني اللورد كرومر¹⁶³ أحد السياسيين و الديبلوماسيين الانجليز

الذي كان يهدف الى هدم قيم الإسلام و الحضارة الإسلامية عن طريق هدم الأزهر و المؤسسات الدينية ، لذلك استخدم محمد عبده و هيئاً له الطريق لذلك كما يرى محمد الجنبهي أحد كبار فقهاء الأزهر، حيث يقول : "... و كان من مساعدة اللورد كرومر لشيخه و مرشده أن ولاه مناصب القضاء الأهلي، حتى وصل به الى وظيفة (مستشار)، و ذلك أمر من أعجب الأمور، لأنّه لا يتولى ذلك المنصب إلا المتخرجون في المدارس الأهلية النظامية ، و ما سمعنا بطالب علم يلبس ثوباً رثاً و نعلًا بالية، بالصورة التي صوّره بها بعض الإنجليز، يتولى منصب المستشارين بغير استحقاق، الا مرشد اللورد"¹⁶⁴. و يرى الجنبهي أنّ محمد عبده مات حسرةً حين تخلى عنه اللورد كرومر، لأنّ هذا الأخير هو الذي ساعده في تنفيذ مشروعه الإصلاحية ، و قام بإعلاء شأنه، و جعل له نفوذاً تاماً في جميع الدوائر السياسية، و كان غرض اللورد كرومر من وراء ذلك أن يستعمله في تنفيذ أغراضه السياسية و الإستعمارية، التي اجمع عليه ساسة الدول المتحالفة¹⁶⁵.

و من بين المفكرين الذين انتقدوا فكر محمد عبده السياسي و الاجتماعي ، سيد بن حسين العفاني ، حيث يرى أن أفكار محمد عبده في الإصلاح السياسي و الاجتماعي كانت عبارة عن إصلاحات في ظاهرها، لكنها تخدم المستعمر الإنجليزي في الباطن، و اتَّهمه بأنه كان عميلاً لدى اللورد كرومر، و كان عدوّهما المشترك العلماء غير الأحرار أي "رجال الدين" الذين كانوا ينفرون من المحتل و العمل معه في نفس الوقت، لذلك ابتداءً محمد عبده عمله الإصلاحية بمهاجمة الأزهر و نقد المحاكم و نقد الحياة الاجتماعية و كرومر من ورائه يقطف الثمار¹⁶⁶، كما يرى أنّ أفكاره كانت تمثل حلقة وصل بين العلمانية الأوروبية و العالم الإسلامي، و من ثمّ فقد باركها المخطط

¹⁶³سيد بن حسين العفاني، أعلام و أقزام في ميزان الإسلام، ج1، دار ماجد عيري للنشر و التوزيع، السعودية، ط1، 2004،

ص81

¹⁶⁴ محمد محمد حسين، المرجع السابق ص 85-86

¹⁶⁵ محمد محمد حسين المرجع نفسه ص 87

¹⁶⁶ سيد بن حسين العفاني، المرجع نفسه ص 85

اليهودي الصليبي ، و اتخذها جسراً عبر عليه الى علمانية التعليم و التوجيه ، في العالم الإسلامي و تحية الدين عن الحياة الاجتماعية بالإضافة الى إبطال العمل بالشرعية و التحاكم الى القوانين الجاهلية المستوردة ، و استيراد النظريات الاجتماعية الغربية ، و هو ما تم جميعه تحت ستار "الإصلاح" ¹⁶⁷. كما أنّ أعظم خطة وضعها الإستعمار الإنجليزي هي تأسيسهم "مجلس شورى القوانين" حيث كانوا يحكمون مصر عن طريق هذا المجلس الذي كان محمد عبده عضوا رئيسيا فيه و خدم خدمات جليلة له ¹⁶⁸.

صحيحٌ أن محمد عبده قد أخطأ حين اعتزل النضال السياسي الثوري ضد الاحتلال الإنجليزي و اكتفى فقط بالإصلاح التربوي و التعليمي و غيره، صحيحٌ أنّه قد أخطأ عندما علّق اماله على الإستفادة في أعماله الإصلاحية من سلطات الاحتلال ، لكن هذا لا يعني أنّه كان راضيا بالمستعمر و موالياً له ، حيث يرى محمد عمارة أنّه من الطبيعي أن يعمل محمد عبده على استغلال رضا الإنجليز و الإستفادة منه في استخدام سلطتهم و سلطانهم لتسهيل أعماله الإصلاحية في التربية و التعليم و إصلاح المؤسسات الفكرية و الاجتماعية التي يريد لها التطوير و الإصلاح ¹⁶⁹، فليس أمام الرجل حلّ آخر، فإذا اختار الثورة و النضال سيجدّ الانجليز في مواجهته ، و اذا اختار اصلاح الفكر و التراث سيجد الفقهاء و قوى التقليد له بالمرصاد ، لذلك اختار الطريق الثاني، و للرجل أسبابه الخاصة ، كما أنه ليس ساذجا حتى يغفل عن كون أن الانجليز يستغلونه لتنفيذ خططهم، فأكد أنه يعلم بهذا الأمر، لكنّه هو كذلك استغلهم لإنجاح مشروعه الإصلاحى. لكن الأستاذ الإمام رغم ذلك قد أغفل كون أن الإنجليز أكثر حيلة و ذكاء منه ، كما أنّ أي مشروع إصلاحى لا يمكن أن ينجح إلا في جوّ من الحرية و الإستقلال .

غير أنّ الاتهامات الموجهة له كونه صديقا للورد كرومر و غيره، في رأيي أنّها ليس سوى محاولات من الشيوخ التقليديون لتثويبه صورة و سُمعة الأستاذ الإمام، و نحن متعودون على هذا الأمر من الشيوخ و أصحاب العقول الدوغمانية ، فعندما يريدون محاربة مفكر يخالفهم الرأي و القضاء على أفكاره، يُلقّون له تُهم و أكاذيب كونه مثلاً عميلاً لدى الصّهاينة أو الأمريكان أو مدعوما من طرف الماسونية أو ما شبه ذلك، حتى يزرعوا الشك في قلوب متابعيه و حتى ينفر منه الناس جميعا ، كما أنّ الانجليز عندما مدحوا الأستاذ الإمام و شكّلوا صداقات معه، فهم يعلمون أن الفقهاء سوف يستغلون هذا الأمر لمحاربة فكر الإمام ، و بالتالي يعلمون أن مشروع الأستاذ الإمام سوف يفشل لا محال، لأن سلطة الفقهاء و رجال الدين هي المسيطرة و التي يتبعها عامة الناس ، فالإستعمار الإنجليزي او غيره محال أن يرضى بنجاح أي مشروع تنويري في العالم العربي و الإسلامي ، بل العكس يريدون هذا التقليد و الجمود أن يبقى هو المسيطر، و أرى أنّ أمثال هؤلاء الشيوخ و المفكرين الذين هاجموا الأستاذ الامام من الجنبهي و السيد ابن حسن

¹⁶⁷ المرجع نفسه ص ص 88-89

¹⁶⁸ سيد بن حسين العفاني، المرجع السابق، ص 87

¹⁶⁹ محمد عبده، الأعمال الكاملة ج1، المرجع السابق ص 84

العفاني و النبهاني و غيرهم هم الذين يصقّق لهم الإستعمار و يريد لأفكارهم أن تسود في المجتمعات العربية و الإسلامية على حساب أفكار المصلحين و المجدّدين.

إنّ الأستاذ الإمام مشكور على الكثير من أفكاره التي قدّمها في الجانب السياسي، كما أنّه لم يكن واضحاً في جوانب أخرى، كموقفه مثلاً من السلطة الدينية و الدولة المدنية، حيث أن الأستاذ الإمام يرفض و بشكل قاطع نموذج الدولة الدينية بكل أشكاله، و هذا ما جعل الكثير من الباحثين يعتبرونه علمانياً، لكنّه في نفس الوقت قد رفض العلمانية، و بالتالي فقد دعا الى دولة مدنية-إسلامية في نفس الوقت، إسلامية المرجعية و مدنية النظم و المؤسسات¹⁷⁰، و هذا أمرٌ متناقض بعض الشيء، فإما أن تكون الدولة مدنية علمانية تستمد قوانينها و شرائعها من النظم الوضعية، و إما دولة دينية تستمدّ قوانينها من الدّين ، لكن قول الأستاذ الإمام أنه ضد الدول الدينية و يريد أن تكون هناك دولة مدنية تكون مرجعيتها الإسلام، فالإسلام هو دين كذلك و بالتالي فأستاذ الإمام يدعو الى الدولة الدينية و يرفضها في الوقت نفسه ، حتى و إن كان يقصد بالدولة الدينية التي تقدّس الحاكم و حاشيته و تحتكر الدّين لنفسها.

فعندما أدعوا الى دولة مدنية فإنّي أدعو الى دولة حيادية لا تهتم لا بدين معيّن و لا تهتم بالعرق و الجنس و غير ذلك، و القوانين فيها وضعية شاملة تشمل الإنسان ككل سواء كان مسلم أو يهودي أو بوذي أو غير ذلك ، فالدولة المدنية تقيّم الإنسان على حسب أفعاله لا على حسب دينه و معتقده، لكن عندما أقول عن دولة تكون مرجعيتها الإسلام، فهنا اتحدث عن دولة لها قوانين و حدود كحد السرقة و الزنا و القصاص و قوانين الميراث و الزواج و الطلاق...، و بالتالي سوف تدخل هذه ضمن الدستور ، لكن هذه الحدود ليست ملزمة على الجميع لأنّه دائماً يوجد في البلدان العربية ممن لا يدينون بدين الإسلام ، فكيف لنا أن نفرض عليهم اتباع قوانين الدّين الإسلامي ، و نطبّق عليهم حدوده ؟.

و على كل حال فإنّ الأستاذ الإمام مشكور على جهوده التي بدّلها في الإصلاح السياسي، و كذلك الاجتماعي خاصة في مسألة الاسرة و تحرير المرأة، و ربّما على المرأة المصرية اليوم أن تتوجه بالشكر و الثناء له و لتلميذه قاسم أمين لأنّهما من الرّواد الأوائل الذين دعوا الى تحريرها و لم يرضوا لها ذلك الذلّ و الهوان الذي كانت تعيشه، رغم الانتقادات الكبيرة التي تعرّضوا لها بسبب موقفهم من النقاب و تعدّد الزوجات و تقييدهم للطلاق و غير ذلك.

¹⁷⁰ محمد عمارة، المنهج الإصلاحى للإمام محمد عبده، المرجع السابق ص 125

الختامة

أخيراً يمكن أن نقول أن محمد عبده ، جاء بمشروع إصلاحى و نهضوى كبير شامل لكل الجوانب الحياتية التي تخص العرب و المسلمين و قد قدّم لنا في مشروعه هذا مجموعة من الحلول التي من المفترض انها قد تُخرج العالم الإسلامى من تخلفه ، و قد استقى مشروعه هذا من عدة مفكرين أهمهم أستاذه جمال الدين الأفغانى الذى تتلمذ على يده ، و ان خالفه في عدة مسائل الى أن هدفهما كان واحداً ألا و هو النهضة و الإصلاح.

كما أن مشروع محمد عبده كان ذو نزعة عقلية الامر الذى يحيلنا الى فكرة أن الأستاذ الامام كان ذو فكر اعتزالى ، حتى أن الكثير من المفكرين يعتبره كذلك و ان لم يصرّح هو بهذا الامر ، و كان منهجه في الإصلاح منهجاً وسطياً ، أي أنه وقف موقف وسطى بين دعاة التقليد الذين يرون أن قيام النهضة لا يكون الا بالرجوع الى الماضى ، و بين أنصار التغريب و العلمانيين الذين يرون أن النهضة لا تكون الا بالتباعد قيم الحضارة الغربية.

و يمكننا تلخيص أهم النتائج التي توصلنا اليها في بحثنا هذا في النقاط التالية :

- ظهر مصطلح النهضة لأول مرة في أوروبا ثم انتقل الى العالم العربى الإسلامى عن طريق مجموعة من العوامل ، كما أنّ هناك اختلاف في تعريف المصطلح عند الغرب و العرب.
- ظهرت مجموعة من الاتجاهات نادى بضرورة احداث النهضة ، و كان لكل منها وسيلتها الخاصة ، الا أن الهدف كان واحداً.
- نشأة محمد عبده في أسرة و في بيئة تقليدية بالإضافة الى النظام التعليمى الدينى التقليدى الذى تلقاه و الظروف المزرية التي عاشها ، كل هذه العوامل جعلته يثور على تلك التقاليد و الأوضاع ، و كلها ساهمة في بلورة فكره الإصلاحى.
- دعى محمد عبده الى اصلاح التربية و التعليم ، و ركّز أكثر ما ركّز على اصلاح الأزهر و المؤسسات الدينية ، محاولاً بذلك ادخال مناهج و دروس عصرية حديثة كالفلسفة و الرياضيات و الهندسة و غير ذلك من العلوم الحديثة و تدريسها للطلبة بدلاً من الاعتماد فقط على أصول الفقه و الحديث و السيرة.
- دعا محمد عبده الى تحرير المرأة المسلمة و نادى بضرورة تعليمها و أباح لها الخروج من المنزل و تقليد المناصب، و حارب النقاب ، و تعدّد الزوجات.
- دعى محمد عبده الى إعادة النظر في التفسير و كتب التراث ، و نادى بضرورة اعمال العقل في التفسير و الارتكان الى مناهج العلوم الحديثة كالمنج التاويلى. و رأى بأن الشرع لا يخالف العقل ، و ان حدث تعارض و جب أن نعيد التاويل و نقدم العقل على النقل.
- ركّز محمد عبده في إصلاحه السياسى على اصلاح الحكومة و وضع مجموعة من الشروط التي ينبغى أن يتحلّى بها الحاكم ، و رأى بأن الحكومة يجب أن تكون شورية ، كما أنّه نادى بدولة مدنية في حدود الشرع.

نستنتج ممّا سبق ، أن محمد عبده جاء بمشروع إصلاحى شمل مختلف الجوانب التربوية و الاجتماعية و الدّينية و السياسية ، و يعود له الفضل في كثير من الأمور و المسائل اليوم خاصة فيما يتعلق بتحرير المرأة و عقلنة الدين الإسلامي و اصلاح مناهج التعليم في الازهر.

الآ أن مشروعه رغم ذلك كان به الكثير من النقائص ، كما أنّه لم يجب على الكثير من المسائل و لم يكن واضحاً في الكثير منها ، كمسئلة علمنة الدولة و مسئلة التوفيق بين الماضي و الحاضر. الامر الذي جعل الكثير من تلامذته بعده و المفكرين يحاولون الإجابة على المسائل التي بقت معلّقة و إيجاد حلول مناسبة لإشكالية النهضة التي لم تلقى صداها مع محمد عبده و لم تحدث بالمعنى الحقيقي كم حدثت مع الغرب الى يومنا هذا ، و مزال الكثير من المفكرين اليوم يتخبطون و يحاولون إعطاء حلول مناسبة تُخرج العالم العربي الإسلامي من المأزق الذي هو فيه ، الا أنّ ذلك لم يجدي نفعاً ، بل زاد تمزّق العرب و المسلمين ، و ازداد تمزّق الإسلام ، و كثر التطرف و العنف و الإرهاب باسم الدّين الإسلامي.

فأين تكمن المشكلة و أين يكمن الحل ؟ و ما هي الاستراتيجيات و الوسائل التي تتحق بهما النهضة و الإصلاح في مجتمعاتنا العربية و الإسلامية ؟

قائمة المصادر و المراجع

أ- قائمة المصادر :

- 1- القرآن الكريم
- 2- الأحاديث النبوية الشريفة
- 3- عبده محمد ، الأعمال الكاملة ، تحقيق و تقديم محمد عمارة ، دار الشروق بيروت، ط1 ، ج 1 ، 3 2 1 ، 1993
- 4- عبده محمد ، رسالة في التوحيد ، تحقيق عاطف العراقي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة.
- 5- عبده محمد ، الإسلام بين العلم و المدنية ، عرض و تحقيق الطنجي ، دار الهلال ، القاهرة ، 1960
- 6- أمين قاسم ، تحرير المرأة ، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، مصر 2016
- 7- أنطوان فرح ، ابن رشد و فلسفته ، دار الطليعة ، بيروت ط1
- 8- الأفغاني جمال الدين ، و عبده محمد ، العروة الوثقى و الثورة التحريرية الكبرى ، تحقيق صلاح الدين البستاني ، ط 3 ، دار العرب ، القاهرة ، 1993
- 9- رضا رشيد محمد ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ج 1 ، دار الفضيلة للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ط 2 ، 2006
- 10- أمين أحمد ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان .
- 11- سكاون ألفريد بلنت ، التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر ، راجعه و وافق عليه الشيخ محمد عبده ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 2008.

ب قائمة المراجع :

- 1- حوراني ألبرت ، الفكر العربي الحديث و المعاصر ، ترجمة كريم عزكول ، دار النهار ، بيروت ، 1968
- 2- نعيم بلال ، الفكر الإسلامي بين النهضة و التجديد ، دار الهادي ، بيروت ، ط1 ، 2004
- 3- البرقاوي أحمد ، محاولة في قراءة عصر النهضة ، الأهلية للطباعة و النشر ، ط2 ، 1999
- 4- المحافظة علي ، الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت ، 1987
- 5- عكاوي رحاب ، أعلام الفكر العربي : الإمام الشيخ محمد عبده في أخباره آثاره ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط 1 ، 2001.
- 6- السلطان جاسم ، استراتيجية الإدراك من الصحوة الى اليقظة ، أم القرى ، ط4 ، 2010
- 7- أحمد زكي صلاح ، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث ، مركز الحضارة العربية ، ط1 ، القاهرة ، 2001
- 8- جدعان فهمي ، أسس التقدم عند مفكري العرب ، دار الشروق ، ط3 ، 1988

- 9- الغلاييني مصطفى ، عظة الناشئين ، المكتبة الأهلية ، مصر ، 1995
- 10- عمارة محمد ، جمال الدين الافغاني ، دار الشرق ، ط2.
- 11- عمارة محمد ، المنهج الإصلاحى للإمام محمد عبده ، مكتبة الإسكندرية ، 2005
- 12- عمارة محمد ، الإمام محمد عبده مجدّد الدنيا بتجديد الدّين ، دار الشروق ، ط2 ، القاهرة ، 1988 ،
- 13- عمارة محمد ، الإسلام و المرأة في رأي الإمام محمد عبده ، دار الرشاد ، القاهرة ، ط5
- 14- صبري محمد ، تاريخ مصر الحديث من محمد علي الى اليوم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1926
- 15- قرني عزة العدالة و الحرية ، سلسلة المعارف ، الكويت ، عدد حزيران ، 1988
- 16- بدوي عبد الرحمن ، الإمام محمد عبده و القضايا الإسلامية ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2005
- 17- عبد المقصود فوزي محمد ، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمد عبده و آلياته في تطوير التعليم ، كتاب الكتروني ، جامعة الفيوم
- 18- السروجي محمد محمد ، دراسات في تاريخ مصر و السودان الحديث و المعاصر ، الإسكندرية ، 1988
- 19- أمين عثمان ، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1996
- 20- بوصفصاف عبد الكريم ، الفكر العربي الحديث و المعاصر ، ج1 ، دار مداد يونفارستيفراس ، قسنطينة ط1 ، 2000
- 21- بيومي سليمان زكريا ، التيارات السياسية و الاجتماعية بين المجدّدين و المحافظين : دراسة تاريخية في فكر الشيخ محمد عبده ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1983
- 22- رمضان عبد العظيم ، صراع الطبقات في مصر 1873-1952 ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1978
- 23- قلججي قدري ، ثلاثة من أعلام الحرية : جمال الدّين الأفغاني محمد عبده سعد زغلول ، دار الكتاب العربي ، بيروت
- 24- حسين محمد محمد ، الإسلام و الحضارة الغربية ، دار الفرقان ، 1985
- 25- صبري مصطفى ، موقف العقل و العلم و العالم من رب العالمين و عباده المرسلين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1981
- 26- العراقي عاطف ، الشيخ محمد عبده مفكراً عربياً و رائداً للإصلاح الدّيني و الاجتماعي : بحوث و دراسات عن حياته و أفكاره ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1995
- 27- العفاني سيد بن حسين ، أعلام و أقزام في ميزان الإسلام ، ج1 ، دار ماجد عيري للنشر و التوزيع ، السعودية ، ط1 ، 2004.

ت- المعاجم و القواميس و الموسوعات :

- 1- م.روزنتال و ب.يودين ، الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1
- 2- وهبه مراد ، المعجم الفلسفي ، دار قباء الحديثة ، للطباعة و النشر ، القاهرة ، 2007
- 3- ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله العلي ، دار لسان العرب
- 4- سلامة رؤوف موسى ، موسوعة أحداث و أعلام مصر و العالم ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط1 ، ج2 2001
- 5- مدكور إبراهيم ، المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، مصر ، 1983.

ث- الجرائد و المجلات :

- 1- أمين عثمان ، دروس للشباب في سيرة الأستاذ الإمام محمد عبده ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، العدد 40 ، نوفمبر 1964
- 2- رمضان وليد ، الإمام محمد عبده ، رائد التنوير رجل سبق عصره ، دار المجلة العربية للنشر و الترجمة ، العدد 514 ، نوفمبر 2016.

د- المذكرات و الرسائل الجامعية :

- 1- موسى بوبكر ، إشكالية فكر النهضة العربية ، مذكرة تخرج لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الفلسفة ، جامعة الحاج لخضر ، بابتنة ، 2010-2011
- 2- شاونشي فوزية و كراس الزهرة ، إشكالية النهضة عند محمد عبده ، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر ، تخصص فلسفة عربية حديثة و معاصرة ، جامعة الجليلي بونعامة ، خميس مليانة ، 2016-2017

ج- الملتقيات و الأيام الدراسية :

- 1- ملتقى دولي حول مدرسة المنار و دورها في الإصلاح الإسلامي الحديث ، القاهرة ، فندق فلانكو ، 8 و 9 أكتوبر 2002م

ح- المقالات :

- 1- أمينة يوسف : إمام الإصلاح ، ديوان الأهرام ، ضمن موقع :

<https://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?serial:2958138eid:3212>

- 2- الشيخ شريف : الإمام محمد عبده رائد الإصلاح في العصر الحديث، الثلاثاء 23 فيفري 2010 ، 43 : 11 ضمن موقع :

<https://www.ahlalmontada.com/ar/phpbb>

3- شمس الدين الكيلاني ، الإصلاح الديني : محمد عبده نموذجا ، 29 مارس 2008 ،
00:00 ، ضمن موقع :

www.alhayat.com/article/1376327

4- فادي قدري أبوبكر ، اتجاهات الخطاب الفكري العربي النهضوي ، و إشكالاته ، 16
جويلية 2016 ، 02:28 ، ضمن موقع :

<https://www.alhayat.com/article/762930>

5- عواطف عبد الرحمن ، تحرير المرأة العربية قضية مجتمع ، 24 جوان 2014 ، 16:51 ،
ضمن موقع :

<https://www.alhayat.com/article/836625>

6- عبد الحليم عويس ، التربية و إصلاح الأمة في مقالات محمد عبده ، 02 مارس 2014 ،
ضمن موقع :

<https://www.alukah.net/culture/0/67260>

الصفحة	فهرس المحتويات
أ-ب	مقدمة
23-4	الفصل الأول : مدخل الى النهضة العربية
12-4	المبحث الأول : مفهوم و خصائص النهضة العربية
6-4	1- تعريف النهضة
7-6	2- السياق التاريخي للنهضة العربية
12-7	3- عوامل قيام النهضة العربية في العصر الحديث
18-12	المبحث الثاني : الإتجاهات العامة للنهضة العربية
15-12	1- الاتجاه الديني
17-15	2- الاتجاه العلماني
18-17	3- الاتجاه القومي
23-19	المبحث الثالث : أهم مفاهيم النهضة العربية
20-19	1- مفهوم الحرية
21-20	2- مفهوم العقل
23-21	3- مفهوم الديمقراطية
64-24	الفصل الثاني : مشروع محمد عبده في الإصلاح
30-24	المبحث الأول : حياة محمد عبده
24	1- ميلاده و نشأته
25-24	2- تعليمه
27-26	3- حياته العملية
29-27	4- رحلاته
30-29	5- وفاته و مؤلفاته
55-31	المبحث الثاني : معالم الفكر الإصلاحي عند محمد عبده
37-32	1- الإصلاح التربوي و التعليمي

43-37	2-الإصلاح الدّيني
52-43	3-الإصلاح الإجماعي
55-52	4-الإصلاح السياسي
64-55	المبحث الثالث : نقد مشروع محمد عبده الإصلاحي
58-55	1-نقد الإصلاح التربوي و التعليمي
61-58	2-نقد الإصلاح الدّيني
64-61	3-نقد الإصلاح السياسي و الإجماعي
67-66	الخاتمة
72-69	قائمة المصادر و المراجع

